خالد الحديدى

سقوط
أسطورة البركة

قصص

صدرت الطبعة الأولى فى سبتمبر 2019بطاقة

الكتاب

عنوان المؤلف	سقوط أسطورة البركة
المؤلف	خالد الحديدى
التصنيف	قصص
رقم الإيداع	16968 - 2019
الترقيم الدولي	978-977-6726-75-8
رقم الإصدارالداخلى	491 الطبعة الاولى سبتمبر 2019
عدد الصفحات	90 صفحة
تصميم الغلاف	مؤسسة النيل والفرات

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع

ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي

رئيس مجلس الإدارة

ناجى عبد المنعم

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع

أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017

رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572

عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018

هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901

nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات

alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat

المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – امام سنتر الـ13 – عقار 304

إهداء

لمن أحبطني ، واستمات كي لا أكون

قد ينتظر احدهم سقطتك باشتياق ليفرح بضعفك ولجوئك إليه بطلب المساعدة والغوث ويظنك ساذجا جاهلا بقواعد أللعبه فيفاجأ بك صامدا مواجها لأمورك باحتراف وصبر...انه يراك تسير في طريقك متخطيا آلامك متحديا الصعاب والأيام تمر بك وأنت من جميل لأجمل ثم لأنجح...انه يلمس ترفعك حتى عن النظر إليه أو استشعار نظرة الشفقة أو الشماتة في عينيه....لقد أدرك انك قوي ذو كرامه ومبدأ...هنا يصيبه الدوار والخزيان ويراقبك في غيظ يشوبه الحسد ثم يبدأ في الانزواء ولكنه بعد مده من الاحتراق الداخلي سيقابلك بالورود ويمهد لق الطريق بالرياحين ثم سيقدم احترامه لق ليس حباً لق ولكن لهيبة اعترته تجاهك عندها سيكون من حقك إن تبتسم خفيةً منتشيا بنتائج انتصارك العادل الحكيم

خالد الحديدى

مقـدمة

في زمن تتأرجح فيه الكلمة بين الخوف والتملق ويحبس الإبداع في غرف مغلقة يقف الأدب في أفضل أحواله باحثا عن نفسه منكباً على لملمة أشلائه قبل إن يصبح في قبضة النار والريح. نستفيد من تجارب الآخرين ولنقرأ خلاصة إبداعهم على الافقدنا تجاربهم وواقعنا وقضايانا لان هناك أمم تطغى همومها القومية أو الإنسانية فليكتب أدباءنا وبحرية عن همومنا المستمدة من عمق الجوع والألم الصاخب في الوجدان الإنساني في بلادنا.

فالشعر والأدب ليسا ترفا وتفريغا إبداعيا هما ماءً وخبزاً وسلاحاً..........

خالد الحديدى

سقوط أسطورة البركة

أطل علي جاري بوجهه العتيق

وقال : « أليس عجيب أن لا نرى الشيخ مبروك لأيام

قلت وانأ لم ارفع يدي عن شعر

الزبون الذي اعمل فيه مقصي :

- لقد افتقدته إنا الآخر،

ولا ادري ماذا ألم به .. لعله مريض .

عجيب ، ظننت الشيخ مبروك لا يمرض .

- ولم ؟ أليس ببشر مثلي ومثلك ؟

- بلى ولكن ..

- ولكن ماذا ؟

ولم يجد جاري ما يقوله ، فاستدار وتركني أفكر في الشيخ مبروك الذي لم يزرنا مؤخرا وهو الذي لم يعودنا على التخلف قط ، إذ دأب على المرور بنا يوميا منذ عشرة أعوام ولم يعفنا إلا في أيام العطل والأعياد .

كان الشيخ مبروك شخصية فيها الكثير من وجوه الغرابة ..

وكان عهدي به منذ عملت صبيا في دكان الحلاق التي آل إلي

أمرها فيما بعد كما هي العادة، وكان يلذ لي كثيرا أن أتأمل قامته الفارعة ووجهه القسيم الملتحي وتلك المسبحة الطويلة السوداء، فتروح عيناي تنتقلان من عمته الحائلة اللون إلى جلبابه القديم الذي كان أبدا نظيفا ، إلى خفين ينتعلها ومشي بها مشيته الخفيفة .

ولم أكن اعلم في بادئ الأمر سر زياراته اليومية المنتظمة ،

فقد كان لا يجلس ولا يتباطأ ، يدخل فيلقي السلام بصوت خفيض ثم تمتد إليه يد صاحب الدكان بجنيها واحد يلقيه هذا بجيبه ثم ينصرف عنا إلى، صف طويل من حوانيت الحلاقين والمنجدين وباعة الملابس القديمة يجمع منهم الجنيهات .

وحرت في ماهية الشيخ مبروك واستثار فضولي : أهو شحاذ ؟ كلا ليست له هيئة الشحاذين ولا نفسيتهم ولا نكلفهم لما يستدر

العطف ومحرك الحسنة .. ففيه نظافة دائمة وفيه كبرياء تلجم

لسانه فلا يفوه بكلمة الشكر إلا بصوت خفيض.

ولم يدعونه (الشيخ). ما أكثر المتمشيخين ! ولكنه أيضا

لا يشبههم . عهدي بهؤلاء يجلسون فيتلون من آيات الكتاب

الكريم ما تيسر منها . ثم يشربون من القهوة قدحا أو اثنين

ويقبضون بعدها ما تيسر أيضا وهم يدعون للمعطي بان يرتد له هذا الجنيه جنيهات

وان يوسع الله له في الرزق لتنبسط كفه بالعطايا .. اجل ليس الشيخ مبروك رغم العمة واللقب واحد من هؤلاء .. وهو في شكله العمومي اشد ما يكون شبها الذين يفتحون البخت و أشياء أخرى إلى جانبها . إذن لم يواظب الرجل على هذه الزيارات اليومية ولم يمنحه صاحب المحل وجيرانه جنيهاتهم راضين ؟

واستحيت إن اسأل صاحب الدكان ،

وكان الأولى أن أدرك إن

الثرثرة من مستلزمات الصنعة . فلا استحي ولا يقف على لساني

السؤال ، ولكنني تشجعت يوما وسألت فقال صاحب الدكان

: « والله يا ابني لا ادري ما أقول ، نحن نتبارك بالرجل ، ففي طلعته من وبركة ينزلان على المحل . لقد أسميناه مبروكا فضاع اسمه القديم وقد يكون محمد أو عليا أو محمود ولكن ما علينا .

مبروك هو الاسم الذي اصطلحنا على مناداته به . أما الشيخ

فهو من متمات الجبة والعمة والمسبحة .

هو لا يطلب قط ولا يثقل علينا ، فإذا أعطيناه أخذ وإذا

امسكنا انصرف غير لائم .. إن في وجهه قناعة غريبة، فكان

الدنيا لديه ليست بأكثر من لقمة تقيم الأود وصحن مسجد

يأوي إليه إذا جن الليل

وسألته وقد شاقني أمره هذا الإنسان : و أما من زوج

له و أبناء ؟

وقهقه صاحب الدكان قهقهة اهتزت لها عروق رقبته وقال

زوجة ؟

زوجة للشيخ مبروك و هو الذي لا تذكر أمامه النساء إلا ويطرق في إعراض . لا يا ابني ، هذا رجل زهد في دنياه ليشتري آخرته .

وسكت صاحب الدكان حين دخل زبون رمى بنفسه على الكرسي الخشن و اسلم رأسه للمقص وفتح أذنين كبيرتين لحكايات صاحب الدكان.

وظللت أعمل في دكان الحلاق أو (صالون السرور والانشراح)

كما كان صاحبه يسميه سنين عديدة، ولا اذكر إن وجه الشيخ

مبروك غاب عنا خلالها يوما واحدا إلا في أيام الأجازات.

وكنت أترقب مجيئه بشوق ، يدخل فيحي ويقبض وينصرف

لا يلوي على شيء .. كدأبه منذ دخلت الكار، صغيرا إلى أن صار إلي أمر صالون السرور الانشراح .

إذن فليس بالكثير لو افتقدت الشيخ مبروك وعراني قلق

خفيف لانقطاعه أسبوعين بكاملها . ولكنه جاء بعدها . جاء

وكان الوقت عصر) فحيا واقترب مني فمددت إليه يدي بالجنيه ولكنه أبتسم ابتسامة حائرة قلما رأيتها على وجهه وقال لا لم أجيء لهذا .. ولا جنيهات بعد اليوم ولم أفهم ما يعني إذ لم اسمعه قبلا تفوه بهذا القدر من الكلام دفعة واحدة فقلت ولم نراك لأيام ..

فأجاب : كنت مشغولا ثم غير نغمة صوته وقال : إلا تحلق لي لحيتي؟

قلت احلق لحيتك ؟

- اجل لحيتي، أنهم يريدوني حليقا كالبكوات . وضحك

ضحكة خلتها تخرج من بطنه .

- من هم ؟ عمن تتكلم ؟

- أنها امرأة سأتزوجها .

- أنت تتزوج يا شيخ مبروك ؟ وهل تفعلها ؟

وعاد يبتسم ابتسامة كشفت عن صفين من الأسنان البيضاء

وقال : مكتوب .

ووقفت أحدق إلى وجهه لم اصدق عيني ولا أذني، وخلت

الرجل يهذي . قال وهو يستحثني :

- أنت لا تصدقني يا حسن .. لعلك تظن انني مجنون .

قلت : تماما، أتمزح يا شيخ .

- لا والله بل سأتزوج .

- ممن ؟

من واحدة لا تعرفها ، أما إنا

فمعرفتي بها قديمة ، كانت فتاة صغيرة ، وكنت أحبها ، ولما شئت إن أتزوجها أبى على أبوها ذلك وأعطاها لابن أخيه، وكان رفضه صدمة لم احتملها فهمت على وجهي كالصعاليك. شعرت بأنني رجل لا صلة له بالناس أو الحياة فعشت كماعرفتني .

وسكت مبروك قليلا وبلل شقته

بلسانه وقال :

وخلتني نسيتها و مات حبها في قلبي إلى أن رأيتها قبل شهر من الزمن بعد أن عرفت إن زوجها قد مات وترك لها طفلة وشعرت

أحس بأنني لا زلت أحبها ذلك الحب الذي لم يعش سواه في

نفسي، فما رفعت قدمي من العتبة قبل أن اعرض عليها الزواج ..

وقبلت بالطبع إذ أنها ستجد في

حمايتي ما يعصمها عن التشرد، ولا بد لي من عمل الآن.. سأكون صاحب عيال .

هذه هي الحكاية يا صاحبي ... مالك.. ألا تقص لي لحيتي؟

كيف اعمل بها؟

.قلت وانأ بين مكذب عيني وإذني ومصدقها : غريب ولم أزد بل حملت الموس وراحت لحية الشيخ مبروك تتناثر إمامي على الأرض سوداء كريش الغراب وشعرت وانأ أزيل عنه لحيته باني امسح عنه الأسطورة .. أسطورة البركة.

عشق على أوتـار الشك

بجرأة لم يعهدها لدى كثير من

نساء الشرق أقبلت نحوه كأنـها

سلطانـة المماليك لتقف بهيبة أمامه وكأنـه أحد رعاياها، إذ أوردتـها السبل نحو محل عمله في مكتب صغير داخل مبنى قديم في احدي الوزارات الحكومية في العاصمة

القاهرة لقضاء أمر يخصـها..

دوى صوت انفجار بعيد اهتزت لـه النوافذ وارتجت منه بعض الستائر لكنه لم يهز لـه جفن وهو يراقب ابتسامتـها تختفي من ملامحـها شيئا فشيئا، فلم يجري كعادتـه ليستفهم

عن موقع الانفجار ويتقصى

أنباؤه.. بل نـهض هذه المرة

كالمجنون من كرسيه ليشير إليـها بالجلوس..

هل يجن الإنسان من النظرة

الأولى، وأية نظرة هذه التي تثير فيه كل هذا الجنون.. نظرة لجسد ممتلئ مفعم بالحيوية، ونـهدين بارزين، ورائحة الأنوثة هذه

تكفي إيقاظ غرائزه النائمة وتشده نحوها دون إن تحرك ساكنا لتحل عليه لعناتها..

لم يرغب إن يعرف سبب زيارتها كي يطيل من أمدها، بل حاول مماطلة الدخول حتى في مواضيع ليست ذا أهمية ليرتوي من سحر

أنوثتها ويملأ كأسه الفارغ من

العشق.

فتحدثا في كثير من الأمور في لحظات تمضي غير آبهة يهما، بل وتأبى أن يقربا من كلمات العشق..

غير إن العشق ليس كلمات فحسب، ليطغى عليه شعور في كونها أجمل اللحظات..

في ثاني إطلاله لها عليه كانت كل الإسرار مكشوفة، وكل الأغوار مسبورة.. إذ لم تكن الرغبة في إن يراوغ أكثر من اجل الوصول إليها

طالما لمس منها تجاوبا، فكانت اللمسة الأولى أسرع مما كان نفسه يتوقع..

لم تكن أقل منه انجذابا حين

استسلمت له لتتذوق معه طعم تلك اللحظات.. فمن اجل أنوثتها تأبى المرأة الاحتفاظ بعرشها لتتنازل عنه لمملوك يستطيع كسر أبوابها

الموصدة، ويتسلل بين ثناياها

لتصبح أخيرا كجارية له تبحث عن رضاه ليمسي مليكا لها..

جوى يكويه مع كل نفحة من

أنفاسها يعرف جيدا انه ليس نشئ يذكر إمام الحرائق التي تمر بها بلده والتي لم تمنعه من الشعور بنشوة الحب إذ منحته رحيق العشق فأحس بالأمل والاطمئنان الذي يفتقده.. فالتوافق بين طرفين لاحتاج إلى أكثر من كلمة طيبة وقلب صادق ليتنازل كل عن عرشه، فما بال من يتصارع من اجل عروش يمكن التنازل عنها.. لم يكن بحاجة إلى تفخيخ الحواجز المؤدية إلى قلبها بعبوات ناسفة كي

يحصل على قبلة من شفتيها.. كما لم يكن بحاجة إلى تشكيل ميليشيات الاقتحام مشاعرها والسيطرة عليها.. فها هو يملك عرشها حين شعرت بالأمان قربه.. كانت فحسب تخفي عنه الكثير من ماضيها خوفا من مجهول تأبى الاقتراب منه، رغم انه كان أيضا

يكره الخوض في ذلك الماضي لذي لم يكن يحمل سوى عذابات تصرخ في نفسها لتؤرقها حتى كادت تنسيها اللحظات الجميلة..

كما انه لا يملك سلطة على

ماضيها.. لذا كان يحاول الإبحار بين خلجات ذاتها المرهقة ليحتوي حاضرها ويتخيل لها مستقبلا

يحمل بين طياته ما يعكر صفو لقلوب ويؤرقها..

لم يتوقع إن تتأخر عن موعد لها معه، رغم انه لا يعرف إن كانت معتادة على التأخر عن مواعيدها، فهو لم يقابلها سوى مرات قليلة، ربما ثالث مرات فقط.. حاول الاتصال بها عدة مرات، وفي كل مرة كانت تخبره إن أعباء الحياة

حالت بينها وبين لقائه، لكنها آتية لا محالة.. وهو ينتظر.. الهواجس تتحول إلى وساوس توخز صدره، لكنه وجد لها مع نفسه عشرات الاعذار ليبعد الوساوس عن صدره.. غير إن شكا واحدا فحسب أوجس منه إن يدمر صرحّي النفس بها..

اعتذرت هي أخيرا عن الحضور لتخلصه من دوامة الانتظار لكنها أدخلته في جحيم الشك الذي حاول

إن يطرده من رأسه مستعيدا شريط اللحظات الجميلة التي قضياها معا، متأملا لحظات قادمة أجمل. للمرة الخامسة.. والسابعة و.. تأخرت.. ولم يتحقق اللقاء الرابع،

وجل ما يخشاه إن يتدخل القدر ليعكر صفو اللحظات الجميلة.. الاعذار كثيرة والتبريرات أكثر حول أسباب تأخرها بل وعدم حضورها، فكان مجبرا على تصديقها ليبقى متربعا على عرشها.. لكنها في النهاية أعذار، وما يحمله مجرد قلب.. والقلب ليس محصنا من الشك مهما بلغ امتلاؤه بالعشق.. فهناك دماء سالت بسبب شكوك وهواجس .. فكيف له إن يقتل ذلك الشك؟!.. وكيف له إن يتخلص من هواجسه لينجو بنفسه؟!..

كما إن غشاوة القلوب تعمي

البصيرة لتحجب الحقيقة التي تمنع الدمار وتصد الموت وتنشر الحياة..

كل ما كان عليه فعله إن يبعد تلك الغشاوة ليكتشف إن ما كان يجول في صدره مجرد هواجس تنحر العشق

على مذبح الشك.. إذ كانت أسباب غيابها مقنعة ، حين حل اللقاء الرابع بمجيئها ليرجع قلبه ينبض من جديد..

نبضات تدفع بالحياة نحو الإمام.. ويكتشف إن أعذارها كانت حقيقة، وان كل ما كان يجول في خاطره كان عشق على أوتار الشك.

المجنونة

. . . فتاة مثقفة على خلق عظيم، تناولت من التعليم حظاً غير قليل وفيها شيء من الجمال: عينان ساجيتان، شعر يشبه أن يكون خيوطاً من ذهب. . . ثم نفس شاعرة متمردة تحس الجمال وتتذوق الأدب. . كانت (فتحية) صورة نادرة في الفتيات: امتزج فيها سمو الروح بجمال الصورة، تعلمت . فظمئت روحها إلى حب عنيف، وعرفت (سامي) فوجدت عنده رياً لروحها الصادي، فأنست إليه وهام بها، وكان حب بينهما، حب جبار قوي كأنه الإعصار لا تسيره المنافع ولا تغيره المطامع ولا توهنه أحداث الحياة، وهو فوق هذا نبيل بصورة لا تقع في الوهم، طاهر بشكل لا يتعلق به ظن.

وكانا يقضيان حياة فيها حظ من الشعر والخيال: يتقابلان في الحدائق فيجلسان على العشب الندي، ويخلوان إلى نفسيهما فيأخذان في فتون من الحديث والأدب، حتى يتقدم الليل فيفترقان إلى عود. . . وكانا يتفقان على الإعجاب بالأدب الفرنسي، وينفقان في القراءة وقتاً غير قليل، ويستطيل كل منهما على صاحبها أحياناً في رقة ورفق ودعابة.

ومضى على هذا الحب سنوات ثلاث. ثم أحيط أبوها بخبره، وكان صارماً قاسياً شديد القسوة، عنيداً مسرفاً في العناد، فاستعدي فتحية فجأة. .

وكان يوم الوداع ثقيل الظل سريع الخطو. . . وجاء القطار! فجاشت الدموع في صدر فتحية، ولكنها تجلدت ونهنهت عينها،

وأخذت نفسها بصمت عميق، وإن كانت روحها تكتم ثورة صاخبة تضطرم في عينيها الحالمتين في ذهول واستغراق. . وكانت تخرج منديلها الأزرق الصغير من حين إلى حين فتلقط به دمعة أو دمعتين. . ثم تحرك القطار وغاب في أحشاء الطريق. فاهتدت الدموع الضالة إلى عين فتحية وغلبتها على أمرها، فاستسلمت للغريزة، وأرسلت عينيها في حرارة وغزارة وذلة وصمت. . .!! وخطبها إلى أبيها رجل كبير من أعيان الريف أوتى بسطة من المال، إلا أن بضاعته من الثقافة والعلم مزجاة، وكان يكبرها بثلاثين سنة أو تزيد!. . . مانعت وتمردت. وثار بينها وبين أبيها نقاش قصير ولكنه حاد. أيهما أشد إسرافاً في الجريمة؟ أهو لأنه يريد أن يقضي على سعادة ابنته؟! أم هي لأنها تخالف أباها في أن تتزوج رجلا لا تفهمه، وليس بينهما صلة من عاطفة أو سن أو ثقافة، وكان جدال عنيف في شيء لا يحتمل الجدال ولا يستدعي الحجة. لأنه بين لا لبس فيه ولا غموض، ولأن حق حرية اختيار الزوج لا يسخط الله ويرضى الناس، يقره الناس ولا يرى القانون بأساً في أن يسمح به، ولكن الحق مهما يكن، ينكره ويلتوي به المكابرون، والمكابرون لا حيلة فيهم ولا دواء لهم. والوالد يحتال حيناً ويتلطف، ويقسو حيناً آخر ويهدد، والفتاة على كل حال تتمرد وتثور. . .!

وأخيراً استقرت ثورتها وانتهت إلى مثل ما تنتهي إليه ثورات النساء في منازلنا: استسلام مغلوب.

وأخيراً!! تبددت في مهب الظلم آمال، وتحطمت على شعاب العناد أحلام، وضاعت في غمرة الطمع أماني. . .

. . . وأخيراً. . . زفت فتحية التي تعلمت في إلى الرجل الذي اختير لها وأكرهت عليه إكراهاً. . .

أغدق عليها مالا وحلياً وثياباً، فلم تبهرها هذه المظاهر، ولم تكسر من حدة نفارها ولم ترد جماحها. . . كانت تبكي في اتصال ومرارة.!

وكان حب سامي لما يزل يستبد بها فينسيها في النهار الراحة والقرار، وفي الليل المنام. . . كانت تغفو أحياناً قليلة، ثم تفيق صارخة مضطربة روعتها الأشباح، وطاردتها أرواح الذكريات في إلحاح وقسوة، فراحت حياتها خليطاً مشوشاً من الصور المرعبة، كانت تحبه حبا طاغيا عنيفاً جعل حياتها في البعد عنه سلسلة طويلة متصلة من الشقاء.

حاولت جهدها أن تنسى: فكانت تخرج إلى الحقول، وتقرأ كثيراً، ولكنها كانت تفر من عذاب إلى عذاب.

وكان زوجها سخيف العقل ضعيف الرأي ضيق النظر؛ وعنده أن المرأة لم تخلق إلا لتكون ماء أو شيئاً يشبه الماء يطفئ به الرجل جذوة الحيوانية. . . فأما أن تتعلم أو تقرأ أتكتب أو تحب، فكل ذلك حياد عن القصد وجور عن السبيل، وخروج عن العرف، وانتقاض على التقاليد.

كانت الهوة بينه وبين فتحية عميقة سحيقة لا حد لها ولا غاية ولا قرار: انصرفت هي إلى حبها وذكرياتها وكتبها فاستغرقتها واستأثرت بها، فلم تجعل لشيء آخر في قلبا مستقراً ولا مقاماً.

وتولى هو إلى مزارعه وماله عن كل شيء عداها، وكان حقير النفس فقير العاطفة مجدب الشعور، لا يضطرب في نفسه إحساس

ولا تعرف العواطف إلى قلبه سبيلا: كل أيامه بعد أعماله أكل ونوم. . . يمر النهار فلا يكاد يتحدث إلى زوجه بأكثر من كلمات آلية معدودة، وإن تحدث ففي شئون مزارعه وماشيته حديثاً تافهاً ضئيلا لا يدل على معنى، وإن كان يدفع السأم ويرد إلى الضجر القاتل.

ضاقت فتحية بهذه الصور المتشابهة من العيش، وأسقمها هذا اللون من الحياة المضطردة الباردة، فاندفع السأم واليأس إلى نفسها اندفاعا قويا.

وضاعت في تيه الذكريات والظلم هذه المخلوقة الشقية التي تستقبل الصباح بالدموع وتودع النهار بالدموع. . . فزعت إلى الكتب تقرؤها إذا كان وجه النهار إلى الضحى، فإذا أقبل العصر خرجت إلى الحقول مطرقة ذليلة لا تحدث إنساناً ولا تستمع إلى إنسان فتقضي وقتاً ما، ثم تأخذ طريقها الصامت إلى المنزل فتخلوا إلى نفسها في غرفتها، ثم تخرج صور سامي فتتحدث إليها وتسكب أمامها الدمع كأنها عابد في المحراب. . .!

. . . وظهر زوجها على صور سامي ورسائله، فثارت نفسه وارتد وحشاً ضاريا عاتياً دس عرينه وأبيح حرمه واستحل حماه، وبدت في خلقه صورة جديدة، الغيرة الصارخة العنيفة. فمسخت تصرفاته كلها وصبغت حياته بلون قاتم ظالم مستبد.

العرض والشرف في الريف شيئان يهون معهما كل شيء. . .! ومضى الوحش يفكر في انتقام هائل مروع بعيد الأثر: فكر في قتلها وفي طلاقها: ولكن هذه الصور لم ترض شعوره المحنق، ولم ترو نفسه الصادية إلى الدم، لأن في كل هذا موتاً سريعاً مريحاً، ولكنه يريدها أن تموت على مهل في نزع طويل بطيء واستقرت نفسه

الحائرة أخيراً على تجربة بدأها حالاً، فعمد إلى كتبها وأوراقها فجعلها وقوداً للنار، ثم أخذها هي بالقسوة وسوء الحساب: يضربها إذا كان النهار، ويهجرها إذا كان الليل، وهو فوق هذا يكلفها من أعمال المنزل مالا طاقة لها به. . .

ومضى السجان الجبار في تجربته والضحية البريئة تذبل على مهل. تمادت بها الآلام فأغرت بها اليأس، وردها اليأس إلى لون من الحسرة ملح، عميق يسوقها إلى الجنون سوقا متداركا سريعاً.!

وكل هذا قصته على أختي عن صديقتها زوج جارنا الغني.

ولأيام خلت كنت أجلس في حديقتي في ظل شجرة هرمة إلى جانب الساقية التي تنوح أبداً. . . سمعت صرخات متصلة ومتقطعة، وكلها ثائرة ومجنونة، وسمعت كلمات مبهمة مختلطة. . . صمتّ وصمتت الساقية وحسبت دموعها، ومالت الغصون على الغدير هامسة (إذن أفلحت التجربة وجنت الفتاة!!) واستأنفت الساقية نواحها. . . وأرسلت دموعها. . . على الفتاة المجنونة. . .!

بعيدا عن أهلي ووطني

أرخى الليل أستاره السود القاتمة على دنيا غضبى تزمجر في صوت عاصفة هوجاء، وسماء ينهمر منها سيل دافق، وقد فر كل إنسان في داره، ونامت الحياة في كل حي، والفتى جالس إلى موقد في زاوية الحجرة، تغمره لجة من الأفكار المضطربة، والخواطر المتناقضة، فتحجبه عن دنيا الناس. لقد رأى نفسه تعصف بها حادثات الأيام فتذرها بددا، فإن مد يده ليجمع أشتاتها لم يجد منها إلا صبابة من نفس لا تستطيع أن ترد إليه جمال الحياة التي عاش شطراً منها بين أهله وذويه، في وطنه الأول حيث ملاعب الطفولة ومراتع الشباب. وجاءته الذكريات من أقصى الطفولة تحمل على أجنحتها لذائد ولذائد لتنصَّب في قلبه هموماً وهموماً، واضطربت جوانح الفتى أن وقف خياله عند الساعة التي أفزع فيها هن وطنه وأهله فبكى بكاء الثكلى تفقد صبرها حين تفقد قلبها. ما الذي أزعجك عن وكرك أيها الطير وأنت ناعم على فنن تغرّد، ترى كل مباهج الحياة عند هذا العش الصغير؟ لقد ضاقت بك الدنيا لأنك تركت قلبك هناك. . . هناك في هذا العش. . .!

لم يكن الفتى كَلاً على أحد، ولم يكن معدماً، ولم يكن ضعيفاً ولا عاجزاً، ولكنه هجر وطنه وأهله حين لم يجد فيها جمال الوطن ولا عطف الأهل، وحين لم يجد بين أهله قلباً كقلب أبيه ينبض له نبضات الحنان والرحمة، ولا رجلاً في رجولته يفيض عليه من بسمات نور الحياة وجمالها. ووقف خيال الفتى عند الساعة التي همَّ فيها يفارق وطنه وأهله تتجاذبه عاطفتان: قلبه من خلف، وتأبِّيه أن يقيم على

الضيم من أمام! ثم غلبته كبرياؤه فانصاع لها تقوده إلى حيث يجد أهلاً غير أهله، ووطناً غير وطنه؛ أو لا يجد. . .

ماذا كان؟ ماذا كان أيها المنزوي في ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضي؟

مرض الفتى فراح يَطبّ لمرضه في عزم الشباب وقوته، وأريد على أن يلبث في مستشفى حيناً، فما خاطب أهله في شأنه، وغاب عنه أن المرض ألم في الجسم وقلق في النفس، وأن الشفاء يحمل إلى المريض على كفين: كف الأسى وكف الطبيب معاً

لقد خاف - بادئ الرأي - أن يفزع أهله أن ساق إليهم الخبر في صورته المزعجة، فأنتظر حتى ينزع الطبيب مشرطه، ليرسل إليهم خبراً هادئاً فيفدون على مهل. ونفض جملة حاله أمام ابن عمه الشاب فلم ير هذا في حديثه إلا صفحة من الاعتداد بالذات، والتفاني في الوثوق بالنفس؛ ثم نظر إليه نظرات ذات معنى وقال: (أيضيرك أن تستعينهم على مرضك ووحدتك؟) فقال الفتى: (لا ضير؛ غير أنى أريد أن أفاجئهم بالخبر) قال الشاب (اعتراني أملأ فراغ قلبك حيناً من الدهر؟) قال: (ولم لا وقد عرفتك منذ نشأتي تفيض عطفاً وحناناً، وتسدي النصيحة خالصة للحب وللقرابة، وتنير لي طريق الحياة بحكمتك فأسير في سنا ضوء عقلك. لقد كنت لي جماعة في فرد. والآن. . . والآن أريد أن أعرفك في مرض.) فصمت الشاب وقد حمَّله الفتى العبء وحده. . .

وحمل البرق رسالة الشاب (ابنكم في مستشفى (كذا) يطب لمرضه وينتظر قدومكم، لا خوف. . .) ثم انطلق الشاب يحمل إلى مريضه خبر الرسالة

هل وعى المريض ما قاله الشاب الباسم؟ لقد كانت وخزات الجرح تنفذ إلى قلبه في مثل طعنات الخنجر وهو يصمد لها في ثبات وصبر، وعلى وجهه علامات الضجر؛ وكان العرق ينضح من جبينه بارداً غزيراً ليرسم عليه صورة ناطقة لآلامه ومتاعبه. وأربد وجه الشاب حين رأى الفتى تتعاوره الآلام، وتتناهبه الأسقام، ثم ابتسم في رقة وهدوء ليداعب صاحبه وينزعه من آهاته العميقة، ولكنه كان يجهد نفسه ليرتد إليه جهده خائباً مخذولا

وفي أنه المحزون انقلب المريض إلى ابن عمه الشاب يقول: (ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ أنني أريد أخوتي وأعمامي وأهلي. . . آه ما شعرت بالوحدة كاليوم. . .!) ورن صدى هذا الصوت الضعيف في قلب الشاب طعنات من يد القدر فراح يقول له. . .

ومضى يوم ويومان وثلاثة. . . ويد الطبيب تمر رفيقة على جرح المريض فيلتئم صدع منه على صدع، وتنفرج في قلبه صدوع وصدوع، لأنه لم يفز بعد برؤية أحد أقربائه؛ ولم يستشعر لحنان إلا من قلب هذا الشاب الذي يختلس من أوقات عمله فترات من فراغ يقضيها إلى جانب مريضه يواسيه ويعطف عليه ويحمل إليه - فيما يحمل - هدية صغيرة، تنتزعه حيناً من أفكاره المظلمة. . .

واستطاع الفتى أن يجلس إلى ابن عمه يحدثه: (ماذا جرى كأنك لم تقص على أهلي خبري. لقد مضى أسبوع ولم يزرني سواك. أنك تملأ قلبي سلوه وعزاء بجمال جلساتك القصيرة، ولكن. . .) وراح الشاب يتلمس لأهله الأعذار: (من ذا يستطيع أن يقول سأفعل. . . لعل حادثاً لم يترام إلينا خبره حال بينهم وبيننا. . . واضطربت الكلمات على شفتي الشاب حين أراد أن ينزع عن صاحبه بعض أفكاره، وحين أراد أن يقول له أنه أصاب الهدوء والراحة حين عاقهم

ما عاقهم عن أن يسرعوا إليه. اضطربت الكلمات على شفتيه لأنه كان يسمع من أقصى ضميره صوتاً يقول: (أن لا عذر. . . لا عذر اليوم!) وكان يرى في إبطائهم استخفافاً وامتهاناً، غير أن حكمته أبت إلا أن تسدل على عيني الفتى ستاراً من الوهم. وما كان للفتى أن يسمع، وأن سمع فما كان له أن يصدق، فهو وحده يشعر بالوحدة حين يخلو إلى نفسه، وهو وحده يحس ألم الصدمة. لقد أراد أن يفاجئهم بخبر هادئ فانصرمت أيام وما رآهم. وتماثل العليل للشفاء، وهمَّ يريد داراً غير هذه ولم ير منهم أحداً. يا ويح هذا الفتى! لقد راح يطلب الشفاء من علة في جسمه، فملأت الأيام قلبه عللاً سلبته لذة الشفاء

وجلس الفتى إلى عمه يعاتبه: (أفكان من العطف أن أنبذ في حجرة، وحيداً، متألماً، مريضاً، أقاسي ما أقاسي فلا أجد منكم من يزورني أو يكتب إلي؟ لقد كان أبي منكم بالمكان الذي تعرفونه، وكنت من أبي من تعرفون؛ أفلا ترعون حقه في أبنه الملقى على سرير في حجرة موحشة لا يجد من يواسيه إلا ابن عمه الشاب؟) وأحس العم عظم الخطيئة فراح يعتذر: (لقد حجبنا عنك موت إحدى قريباتك) وانطلق الفتى يقول: (لقد سعيتم إلى الميت وقد انتهى، ولبثتم حول قبره أيام تبكون، لتتركوا الحي الذي لا هو بالحي ولا هو بالميت يستروح نسمات الحياة منكم فما يجدها. أفبعد هذا تزعمون، وتزعمون. . .؟) وسبقت زلة من لسان العم: (ولكن. . . أن لك لهنات!) فأسقط في يد الفتى أن سمع عمه يتشفى، وآلمه أن ينتقم أهله. لقد زل الفتى مرة وكل فتى يزل، وما كان لهم أن يعاقبوه وهو يحن إلى بعض عطفهم، وما كان لهم أن ينبذوه في الهاجرة وهو المشوق إلى فيء ظلهم. أي أهل؟ وأي إنسانية؟ واندفع الفتى المغيض: (هذا وقت تنسى الهنات، وتنطوي الزلات. أن لي لهنات

لأني لم ابلغ سن العقل، ولكم أخرى لأنكم لم تبذلوا النصيحة. ولقد كفاني أن تبدي لي الأيام ما كان خافياً، وأن تكشف لي الشدائد عن أشياء كنت أجهلها، وعن أخلاق ظننتكم تترفعون عنها. . .) ثم غمرت الفتى آلامه فأمسك، وترقرقت في عينه عبرة حبستها الكبرياء فما تبرح، غير أن أحزانه ثارت في نفسه فقال: (لقد ظننتكم أهلي، وركنت إليكم لأنكم أهلي، وشممت الخير فيكم لأنكم أهلي. أما الآن فيا خيبة الرجاء ويا ضيعة الأمل!)

ونزت في العم سورة من غضب أن رأى الفتى الطائش يلومه فيشتد في اللوم، ويعاتبه فيسرف في العتاب، وأَلَّم أن يقع بينهما تنابذ، ولكن الفتى كان قد صهرته الفكرة في بوتقة من الأحزان حين رأى عمه يتعلق بأوهى الأسباب بعد إذ عاقبه أهله على غير جريرة، في جفاء وغلظة، فرجع إلى نفسه يحدثها ويرغمها على أن تلقي السلم، فألقت واضطربت الخواطر في رأس الفتى، فتركته موزعاً ينحى على نفسه باللائمة أن قال. .

ولشد ما آلمه أن يكون هو ابن أبيه، ووحيده، واقتراحه على الله حين أعجزته الأيام عن أن يكون له ولد، والأمل الباسم في شيخوخة الشيخ وهو يدب على عصاه في طريق الفناء؛ ثم يرى أهله ينبذونه في مستشفى، ملقى على سرير، في حجرة موحشة، لا يأنس إلا بوجه ابن عمه الشاب عصر كل يوم، ثم هم يغلظون له في الحديث، ويشتطون في العقاب. ولشد ما أحزنه ألا يكون له في هذا العالم إلا ابن عمه يحنو عليه، وينظر إليه نظرات فيها العزاء وفيها السلة، ويدخل إلى نفسه بكلام في رقة الأصيل لينسيه بعض ما همه؛ وهو كان يرى - عن كثب - الفتى أو الشيخ من أسرته يصيبه بعض ما أصابه هو فينطلق إليه أبناء الأسرة زمراً زمراً يواسونه، ويعطفون عليه، وينزعون عنه آلامه وأحزانه. أما هو. . . أما هو. . .!

وتناهبته الآلام: آلام المرض، وآلام الوحشة، وآلام عزوف أهله عنه، فأخفى ضعفه المنسكب من عينيه في منديل

وخرج الفتى من لدن عمه مطوياً على آلام مبرحة تحز في نفسه، وتعص على قلبه حين رأى قلوباً تأكلها أحقادها، وعقولاً تعصف بها ترهاتها، وضاقت الدنيا في عينيه حين انهار مثله الأعلى حجراً حجراً بعد ما رأى من عمه وما سمع، فهام على وجهه يطلب الفُسحة في أرض الله. . .

وهبت أول نسمة من نسمات الفجر تشهد قلباً كبيرا ًينزح عن وطنه، ويهجر أهله إلى حيث تتقاذفه مطارح النوى، إلى حيث لا ينبض لذكره قلب. . .

وانصرمت سنون ألبست الفتى شيخوخة باكرة، ورسمت على قلبه آثار حادثة مروعة استقرت في خياله، لقد سكن إلى وطن وأهل غير وطنه وأهله، وقلبه ما يزال عند الساعة التي أفزع فيها عن وطنه وأهله يبكي ويبكي. . .

ليتك نسيت أيها المنزوي في ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضي، ليتك نسيت أنك كنت. . .!

أيام مبعثرة

اجتاز الميادين والشوارع، وأخذ ينساب في الطريق ؛ وكان القمر قد نفض الغيوم عن وجهه، وبدا سافرا يضحك للحقول، ويحنو على النباتات المرتجفة في نسيم الليل، ويناغي الأغصان المشرئبة إليه من أعالي الأشجار، فانبسطت أسارير (تامر) سائق المترو، وفارق العبوس وجهه الهزيل اليابس.

لم يكن الرجل في حال حسنة، لأن الليلة باردة قارصة البرد، وهو مسن، ليس في هيكل من اللحم ما يقي عظامه المقرورة، ولو كان معافى لما شكي، لكنه مريض، مبهور الأنفاس من السعال، معصوب الرأس، يحرك عينيه بعناء كأن السعال قد شدهما في محجريهما بخيوط قوية. . . ما كان أحوجه أن يأوي إلى فراشه! لكنه آثر أن يشتغل الليلة، ليظفر بيوم راحته في الغد، لأن الغد (عيد الميلاد) وهو يريد أن يبقى في البيت مع زوجته (صابرين) وابنته (ياسمينة) يستقبل المهنئين بعودة الأيام، والمتمنين أن يمضي الحول، فإذا بياسمينة أم لطفل جميل.

وإذ ذكر (تامر) فتاته ابتسم، ونظر في ساعته يتعجل ميعاد العودة، ثم أرسل بصره في الطريق أمامه، وابتدأ يغرق في تأملاته: كم له من السنين وهو يقف هذه الوقفة؟!. . إنه الآن مسن! كان فتى عندما ارتدى سترة (المصلحة) للمرة الأولى. كان وجهه ناضراً، وشاربه أسود مفتولا! وكان له حاجبان جميلاً! وكان شعره مرتباً معطراً!. . أما الآن فقد صار يابس الوجه! ظهر الشيب في حاجبيه، وعبثت بجمالهما الأيام! ولم تعد رأسه معطرة مزينة، بل استغنت عن

العطر بأردأ الصابون؛ ولم يعد للمشط معها شأن، لأن شعرها قد انتحل، ولم تذر الأيام منه غير بقايا مبعثرة متباعدة. . . وندت عن صدره آهة طويلة وهو يغمغم: (ما أعجب أمر الحياة!!).

واكتأبت نفس (تامر) واشتد عليه صداعه، واستيقظ سعاله، فاضطربت الصور في مخيلته، وانهدت قواه، ولم يعد يملك كل وعيه، وصار يستقبل بذهول هذه الأصوات المنصبة في أذنيه من ضجيج العجلات، وصريرا لآلة، وهمهمة الأشجار في أذن الليل. . . فلما وصل المترو لمحطة الوصول تهالك في مقعده، وأغمض عينيه وهو يتحسس بيده جبهته الملتهبة، ويحدث نفسه: لا بأس. سأقضي العيد مع ياسمينة، وارتسمت فوق شفتيه ابتسامة سعيدة، ورقص شاربه الفضي.

حاول لآن ينام ريثما يحين وقت العودة، لكن الألم كان يحتدم في جمجمته، ويتردد في عظامه فيعيده إلى اليقظة. . . وأخيراً آثر أن يفكر، وأن يرسل روحه في ماضيه.

واضطربت مقلتاه خلف جفنيه المقفلين! فقد ذكرا (آلة القيادة). آلته المحبوبة، التي يحركها فتندفع المركبة، وتشق الطريق وهي تغنى بعجلاتها فوق القضبان!. . واشتاقت يده أن يلمسها، ويشركها سعادته بالعيد، فمد نحوها يديه، ما أعزها عليه! أليست رفيقة حياته، وعشيرته الدائمة، كزوجته صابرين سواء بسواء!.

وتقلصت ابتسامته عن شفتيه!. ذكر سيئات آلته، وإنها لم تكن له مطيعة . وبدت إمام عينيه صور أشلاء مبعثرة، ورأس هشمتها العجلات. ودم قان يبلل الحصى ويصبغ القضبان!. . وذهب يستر عينيه بيده المرتجفة النحلية، فقد ذكر موقفه في قفص الاتهام، في

محكمة الجنايات، والنائب يحدث المستشارين قائلاً: كان الصبي وأخته في طريقهما إلى المدرسة عندما دهمهما هذا الرجل الشرير المستهين بالأرواح من العدل أن ينال أقصى القصاص.

لقد برأته المحكمة. (ومضت عشر سنوات) لكنه يشعر للآن أنه مذنب. وأنه قد ارتكب خطأ ما. وخيل إليه إن الصغيرين ينظران إليه بعيون بريئة عاتبه مملوءة بالألم. وأن أبويهما يتجدد الحزن في العيد الليلة وهم وفي ثياب سوداء يلتمسان العزاء ويسألان النعيم لولديهما والسلوان لأكبادهما ، فانساب الدموع من بين جفنيه وبللت وجهه النحيل، وغمغم بصوت حزين (رحماك يا رب)

وارتد فكرة من هذه الجولة في الماضي. وذكر أن (ياسمينة) تنتظره ليشاطرها طعام العيد ورأى مائدة شهية. متعددة الألوان عقب أيام الصوم. وما تنالوه فيها من طعام غليظ مجهز بالزيت، فسال لعابه. وبدأت أساريره تنبسط. . وبدأ يصفح عن آلته العزيزة وما فعلت

وأخذ القمر يغالب الغمام ثم احتجب، وأظلمت الدنيا وامتدت ظلمتها إلى روح (المعلم لوقا). . عاد فذكر شيخوخته، وان الحياة ستتبرع له بأيام أخرى قليلة إن كانت كريمة. من يدري قد لا يأتي عليه عيد جديداً. . قد تقضى (ياسمينة) العيد الآتي وحدها، وتشتمل بثوب أسود، وترسل أثوابها الزاهية الملونة إلى المصبغة: ويطفئ الحزن لمعان عينيها، ويذهب ببهجة قلبها، وتصير ابنة يتيمة منكرة!. .

نشر يديه في الهواء كأنه يحاول إن يحميها، ثم سقطت يداه فوق ركبتيه، وانتابته رعدة، وأخذ السعال يصخب في صدره. ففتح

عينيه وأخذ يحدق في الظلام وقديم وجهه شطر الصحراء ورأس نفسه يرتقي الأهرام كما كان يفعل أيام الشباب! وخلال انه جالس على القمة يستعرض الحياة من هناك، ويرسل بصره من مكانه العتيد في القفر البعيد الممتد!. . هو واحد من هذه الهوام الزاحفة على ظهر الأرض يسحقها الموت بقدمه وهي تسعى، فتضير نسياً منسياً كهذه الحشرة التي يدوسها عابر السبيل!.

وبدت له الحياة متعبة ثقيلة لا خير فيها. . . ما أشبه برجل سائر على الرمال، تائه ضال، يسير نحو مصير مجهول تضربه الشمس، ويقرصه البرد، وتروعه وحوش الفلاة. . . يسير ويسير، وهو ينشد الواحة. ويحتمل الصعاب والمشاق على أمل أن يستريح عليها راحة الأبد، ولا يعود يخشى عرياً ولا جوعاً. . .

ماذا كسب من حياته!. . لا شيء. عمل، وعرق، ليست هناك مسرات. ولد وتألم، سيموت. لم يبق غير المرحلة الأخيرة. . .

وحدق في الآلة التي أمامه، وهي جالسة صامتة، تنتظر يده لتدور، وتفنى الوقت في الدمدمة. لم تعد جميلة في عينيه! ود لو يحطمها! رأى نفسه عبدا لها مربوطا بها يطوف وإياها حول المدينة كما تطوف البقرة الذلول حول الساقية كل النهار. أي فرق بينهما!. . بل انه أسوأ منها حالاً! هي تعمل لقاء حفنة من الشعير، وهو يعمل لقاء أجر لا ينيله بين الناس الترف الذي نالته بين البهائم. . .

ماذا أصاب من حياته!. . تنبهت روحه، وأحس كأنه قد حمل على كتفه من ركبوا معه طيلة مدة خدمته. ذكر مركبة الدرجة الأولى التي تكون إلى ظهره إذ يقود الترام. وذكر المترفين الذين يصعدون إليها. ناس من طينة غير طينته. ليسو قوما متعبين مثله أيديهم

ملساء ناعمة لم يجر عليها العمل الشاق. وجباهم منبسطة مطمئنة لم يبللها عرق الكفاح، وليس على وجوههم ثوب الذل الذي نسجه على وجه الضنك والزمان اللئيم. . ذكر كبرياء بعض السادة وعجرفة بعض السيدات. وخشيتهن على أثوابهن الجميلة أن تمسها سترته الخشنة أو يداه الشقيتان.

ذكر كم منهم ومنهن يندفعون إلى باب المركبة وهو يهم بالمسير فتكاد أقدامهم تزل، فيقتحمونه بأبصارهم وتزدحم أفواههم بكلمات الازدراء والتحقير، ويصعقونه بأبصارهم الآلهة وهم يصرخون (يا اعمي) بينما يقيدون (نمرته) في مذكراتهم ذات الجلد الجميل المزركش، ليبلغوا شكواهم إلى الشركة، حتى تجزيه بخصم بضعة أيام من راتبه!. . كم من الأيام عمل بلا اجر، بفضل هذا العنف من الناس! كم غضب ويئس وطاش حلمه. ورد لو يقتاد المركبات إلى النيل لينتقم ويستريح. . عاد إلى حلق تآمر طعم المرارة الذي يغص به المضطهد والمظلوم. وامتدت أنامله المرتجفة إلى القطعة النحاسية المعلقة بياقته. وقد نقشت عليها (نمرته) فأحسن كأنه مسجون محكوم عليه بالعمل الشاق مدى الحياة، وغمغم. (يا رب رحماك!. .)

ونظر في ساعته. . . بعد قليل سيعود إلى القاهرة. سيجمع في طريقه الخارجين من المسارح والصالات. عشاق مسرات الليل زبائنه الدائمين، وشر الراكبين. رحم الله أيام الماضي! لم يكن الناس قد تعلموا الإفراط في السهر، فلم يكن الطريق يزدحم عندما ينشطر الليل. وكان يسوق بسرور واطمئنان لا يخشى شيئاً، لأن الطريق خال والناس في مضاجعهم يستقبلون أحلام الفجر. . أما الآن فيجب إن يجلو أعصابه ويشحذ حواسه، ويلزم جانب الحيطة والحذر، لأن الحانات بدأت ترفض المتهالكين على الشراب، وتطرد النائمين فوق

الموائد. وهم الآن مبعثرون في الطريق يترنحون وقد يحلو لبعضهم أن يداعب السائق، أو يغني وهو جالس بين القضبان!.

وقد بدأت الصالات والمراقص تلفظ روادها. دور الدعارة تتقيأ من ابتلعتهم أول الليل. والفتيات خارجات من دور السينما في رفقة الفتيان! في ذراع كل فتاة شاب! والذراع حار! لا تحلو لهم إلا حفلات الليل! تنهد (تآمر) وهو يفكر ويحدث نفسه: رحم الله أيام زمان! أيتغير الناس هكذا!

ومض السخط في عيني (تامر) وحوقل وهو يعيد في ذهنه صورة هؤلاء الفتيان الذين وقفوا بجانبه بالأمس بعد منتصف الليل. كانت رائحة الخمر تنبعث من أفواههم، والكلمات البذيئة تتكاثر عند شفاههم كما يتكاثر الذباب عند الأقذار. كانوا يتهامسون متهكمين بقميصه الباهت الملوث، وكيف اسود حافته. . . وأخذ يجذب شعرات شاربه بعنف وأنامل متوترة!. .

واتسعت حدقتاه فجأة!. . صور عنيفة كانت تخطر أمام عينيه! ذكر أنداد هؤلاء الغلمان من أربعة عشر عاماً خلت. . كانوا رجالا بأرواحهم فتياناً بأجسادهم. لأن الزمان كان يخلق في الفتيان جهد الرجال. كانت الأرواح كاملة النمو تامة النشاط. لم يكونوا يتحدثون عندما يقفون خلفه عن الفتيات ، لأن حديثاً آخر كان يشغلهم. ولم تكن تنبعث من أفواههم رائحة الخمر بل قد كانت تقبل إلى قفاه إذ يتناقشون أنفاس حارة، نرسلها صدور ألهبها الشوق للحرية. لم يكونوا ضاحكين ساخرين، بل قد كانوا أغلب الوقت حزانى واجمين، ينظرون في صحف الليل فيصمتون ويطيلون الصمت، وهم يحدقون في أعمدة الصحيفة بيضاء لا كتابه فيها، لأن يداً تحب مصر تبعثر

الحروف المصفوفة حتى لا تستيقظ الأرواح لكن الأرواح يقظي متنبه، تقرأ الحديث، وتعلم الخطب.

لم يكونوا يتهكمون به، بل قد كانوا يحدثونه عن مصر ، والمستقبل، والأيام الآتية!. . ويناشدونه إن يلبي داعي الوطن يوم يطلب الوطن المضني دماء بنيه يجدد بها الحياة.

وازدحمت أمام عيني (تامر) الصور المجيدة. وبكى كأن العام ، والتلاميذ عائدون من مدارسهم يملئون الترام ويكونون مواكب جميلة متنقلة هاتفة للحرية! وهو القائد لهذه المواكب لأنه السائق، قائد فخور تياه، لا يزعجه صوت الرصاص، تطلقه أيد أثيمة. مشتاقة لإبادة الأرواح. دائبة على صراع الأحرار. وتمثل في ذهنه صورة الفتيان وهم يسقطون مجندلين يهزون الأعلام في أيديهم وهم يتخبطون في دمائهم. وذكر كيف غلى الدم في عروقه فقفز من الترام وتلقى العلم عن أحد الشهداء وذهب يعدو في الطرقات يزأر بأن الحياة لمصر والنيل لبنيه!. . وأحسن بدم البطولة يعود فيجري في عروقه، ويجدد في صدره الحياة، فشمخ بأنفه، وصعر خده، وابتسم ابتسامة استحمت في الدمع المتهاطل من عينيه، ودس يده في جيبه يلتمس علبة سجائره وأشعل واحدة وهو يغمغم! (ياما شافت العين يا تامر. .)

وكأن صدره لم يحتمل هذا الانفعال فاستيقظ سعاله، وأخذ يعبث بأنفاسه في غير رحمة ولا هوادة، حتى اغرورقت عيناه وانصدع جنباه. هي نزلة شعبية مزمنة مضت سنين وهو يتطبب، وينفق في الأدوية نصف أجره الضئيل على غير جدوى. ولم تكن النوبات بادئ الأمر حادة هكذا ولكن مهنته هي التي قضت عليه استقبال هواء أمشير هو ما أحدث هذه التهيجات بصدره واتلف رئتيه. . كم هم

بترك العمل، ثم كان يذكر حاجة عياله للقوت. فيعود وهو ناقم. يعود لخدمة سيد يرى أرواح خدامه أرخص من أن تفتدى بألواح من الزجاج تقيهم تغيرات الجو! ليس أمامه إلا إن يخضع، ويحتمل، ويدفع ثمن قوته من حياته، وينفق سلفا أيامه الآتية ليتقي غوائل الجوع في الغد القريب!. .

ولم تتركه غلته ليفكر، وبدأ يسعل من جديد. . وتنهد. . لو كان له أولاد لكان الآن في دفء الفراش. رجل سيء البخت. دفنهم بيده أربعة. غيبهم التراب وهم في سن الشباب ليتهم ماتوا صغارا كأخواتهم الآخرين قبل إن تتعلق روحه بهم ويحبهم حبا مفرطا كانت يد المنون تقصفهم كما تقصف الريح السنابل وقد بدأت تمتلئ بالقمح.

واشتد البرد، وازداد الليل حلكة، وساد الإرجاء صمت عميق، وأخذ الرجل ينتفض، خيل إليه أن أولاده الأربعة يحيطون به، جالسين في أكفانهم لا تبين منهم غير وجوهم الشاحبة، وإنهم يعتبون عليه إهماله في علاجهم، وعدم مواظبته في السهر عليهم في مرضهم، وأمضه هذا الخاطر وأقلق روحه، وذهب الشك الماكر يعذبه، وذهب الوهم يصور له أنهم يحتضرون الساعة بين يديه، وانه يسبل أجفاهم، ويطبع على جباههم القبلة الأخيرة.

كان يحسب أن الجراح قد اندملت، وأن يد النسيان قد مسحت الإحزان عن صدره، فإذا بالذكرى تمزق هذه الغشاوة الرقيقة التي نسجها الزمان وإذا بالجراح تتفتح، وإذا به يحسن إن بين جنبيه كبداً قد احترمها الأسى، فلم يبق منها غير قطعة كالإسفنج راوية من قيح الحزن وصديده. ووضع يده على جنبه يلم بها حشاه الممزق، وأخذ يبكي. . يبكي؟!. كيف! لم يكن يبكهم وقد كان الحزن جديداً، لأنه كان وقتذاك رجلا قوياً. وكان يزعم أن البكاء للأطفال والاحتمال للرجال،

لأن الرجل كفؤ لحمل إثقال الهموم. بل قد كان ينكر على زوجته أن تعول وتنتحب، ويطلب منها أن تكون امرأة صبوراً قوية، وكم اختطف حزام من وسطه وانهال عليها بالضرب الموجع ! فما باله الآن يبكي وقد صار شيخاً؟! إن الأطفال إضراب للشيوخ في الإبانة عن عواطفهم!.

وأهمته هذه الفكرة، وأزعجه أنه صار ضعيفاً يضطهده الحزن فلا يستطيع حبس دمعه، وكتم أنينه وحدث نفسه: (والله طيب يا زمان! بقيت عيل يا تآمر! فين عزم الرجال!. .)

وصعب عليه الأمر فأنخرط في البكاء وأخذ ينشج نشيجاً عالياً. وإذ هو في بكائه فاجأته نوبة السعال، وكانت هذه المرة قوية مجتاحة متلفة. . وأحس (تآمر) كأن روحه تتسرب من بين جنبيه. وكان أعضاؤه ترتجف وتتشنج، وأنفاسه تختلج في صدره اختلاجاً قوياً. ثم أخذت حركته تهدأ، ورعدته تسكن، وأنفاسه تعود إلى الخمود.

وشعر (تآمر) في تلك الآونة بشوق شديد لياسمينة، وخيل له أنها مقبلة إليه فابتسم، ومد نحوها يديه، ثم سقطت يداه إلى جانبه، ومال عنقه إلى كتفه. .

وأزف وقت العودة، وذهب (الكمساري) يتفقد صاحبه، وهمس في أذنه: تآمر. كل عام وأنت طيب. الدنيا برد. سوق بسرعة هلكنا. يتوب علينا!. .

كان تآمر فاتحا عينيه يحدق في الفضاء، لكنه لم يجب رفيقه، فاغتاظ، وظنه لا يحفل بحديثه فلكزه وإذا به يتداعى بين يديه. .

وظهر له ما خفي من أمر زميله، وحدق في عينيه فلعم أن (تآمر) قد انتهى أمره مع الحياة فأسبل جفنيه. ومزق السكون صوت ينادي: (لا حول ولا قوة إلا بالله. . . إنا لله وانأ إليه راجعون!. .

كانت (أبنته) تغط في النوم، وكانت الابنة جالسة في ثوب العيد تنتظر أباها وقد لعب القلق بفؤادها، فلما قرع الباب تهلل، وجهها وهتفت وهي تضع يدها على المزلاج: (أبي، كل عام، وأنت بخير).

ولم يجب أبوها، لأنه كان نائماً على ف رفيقه. وكان يبدو على وجهه إن نعاسة عميق، وانه لن يستيقظ سريعاً، وحدق ياسمينة في وجهه لعله يلين ويستيقظ، فلم تظفر بغير تلك الابتسامة الواضحة على شفتيه، كان سعيداً، موفور السرور بالوصول (إلى الراحة)

الحــاوي

كان بمدينة بور سعيد رجل اسمه (الحاوي) يتردد على المقاهي فيعرض ألعابه السماوية وحيله السحرية على الجالسين لقاء ما يجودون به عليه، وكان الحاوي هذا لبقاً فكه الحديث سريع الخاطر قلما يخلو له أسبوع من حيلة جديدة، وبذلك اكتسب رزقا حسده عليه بنو مهنته.

وأهالي بور سعيد كما يعلم القراء اشتهروا بأنه قلما وجد لسان في شرق الأرض أو غربها لم يلموا منه ببعض مفردات. ولكن الحاوي هذا فاق أهل بلده في ذلك فقد وهبه الله هبة اللغات فكان يتفاهم في لغتين، ويشرح حيله ويطلب أجره في تسع لغات.

كان الحاوي رجلا طويل القامة نحيلا أسمر اللون، زينت له أمه أذنه اليمنى بحلقة فضية لأنه عاش لها بعد خمسة ماتوا في طفولتهم. وكان يسر في جلباب عليه معطف طويل محشو الجيوب وينادي بصوت طلق قوي:

(أنا الحاوي، أنا الحاوي ، اطلع البيضة من الكتكوت، جلا جلا جلا جلا جلا ويترجم ذلك أو شبهه إلى ألسن مختلفة بينما (يفنط) أوراق اللعب بين يديه بمهارة نادرة.

وأغنى الله الحاوي جزاء استقامته وذكائه واقتصاده فجلب من ألمانيا لعباً سماوية ثمينة واتخذ له صبية وسيمة الوجه جذابة القد أسمها بهية، وانتشرت شهرته بين أصحاب المقاهي والملاهي في

بور سعيد فاستأجروه لإحياء ليال خاصة أدرت عليه وعليهم الربح الكثير.

وزاد طموح الحاوي فبدل ثوبه الوطني ببدله سوداء على مثال أبناء حرفته الغربيين، وأرسل شعره طويلا قائماً، واتخذ لنفسه لقب (بروفسير)، ثم انتقل إلى القاهرة يشتغل بها في موسم السواح، ويتركها إلى الإسكندرية وغيرها من المصايف في موسم الحر.

كان الحاوي كعادة الحواة يبدأ ألعابه بالمألوف من الحيل مثل كسر البيض ووضعه في إناء أمام النظارة، ثم إخراجه صحيحاً من آذانهم، ويتدرج من ذلك إلى الصعب العجيب مثل أكل الخرق البالية وقصائص الورق، وإخراجها من فمه أعلاما للدول المختلفة وهكذا حتى ينتهي إلى أصعب ألعابه وهي لعبة صندوق الإخفاء الألماني العجيب الذي اشتراه بمبلغ كبير.

وأمر هذا الصندوق يظهر غريبا للمتفرجين، وبيانه إن الحاوي يأتي ببهية فيقيدها بالسلاسل والأغلال ويضعها في صندوق أمام المتفرجين، كان قد طلب إليهم فحصه قبل ذلك.

ويوصد الحاوي الصندوق بالأقفال ويربطه بالحبال ويقف عليه، فيكفهر وجهه، ويقف شعر رأسه، ويتمتم ويتلو تعاويذ سليمان على الجن الحمراء، ويأمرهم الحاوي أن يحولوا جسم بهية إلى المادة الهيولية. عندئذ يتصاعد من الصندوق بخار أحمر فينزل الحاوي عنه ويفتحه فلا ترى أثراً للفتاة فيه. ويقفل الحاوي الصندوق ثانية، ويقف عليه فيكفهر وجهه ويقف شعر رأسه، ويدعو سليمان فتحضر الجن ثانية، فيأمرهم أن يسترجعوا جسم بهية، وينزل الدخان الأحمر

من سقف المسرح ويفتح الحاوي الصندوق فإذا ببهية في أصفادها كما كانت.

حدث ذات مرة في موسم (رأس البر) أن تعاقد مدير فندق كبير مع (البروفسير) على إحياء سبع ليال لتسلية المصيفين مقابل أجر طيباً فأمر الحاوي أن يبني له مسرح خاص في ردهة الفندق الكبيرة، وبدأ لياليه كالعادة، حتى كانت الليلة الثالثة ففي هذه الليلة بعد أن انتهى من لعبة الصندوق وبينما كان يجمع أدواته من المتفرجين ويعطيهم ما كان قد استعاره منهم أثناء الحفلة أعترضه رجل قصير القامة، بدين الجسم، يلمع العرق على وجهه الأسمر الأصفر، رجل من الصعيد في زعبوط أسود وعمامة سوداء بخاله الناظر من تجار العجوة.

تقدم الرجل من الحاوي خجلاً متردداً فقال: (نكتة اللعبة دي!. . . نكتة تمام يا أخينا). فوافق الحاوي على قول الرجل ببرود وأدب مصطنع، ثم مضى إلى غيره، ذلك أن الناس كثيراً ما كانوا يأتون إليه بعد الحفلات يخبرونه أنهم يعلمون سر ألعابه أو أن ما فعله قد رأوه منذ سنوات أو ليلحوا عليه كي يعلمهم السر في حيلة أعجبتهم إلى غير ذلك من سخف كثيراً ما سايرهم فيه أو صرفهم عنه بسحرية غير جارحة، إذ لم يكن من الكياسة أن يجفو لهم في القول وعليهم مدار رزقه.

وتبع الصعيدي الحاوي وهو يردد في شيء من الذهول: نكتة جوي والله عبارة الصندوق دي!. . . . نكتة جوى. (فقال الحاوي مستهزئاً! (إذا كان أعجبك فلم لا تشتري لك واحداً يا معلم! فلم يدرك الصعيدي أن الحاوي يهزأ به إذ كان يفكر في أمر ملك عليه انتباهه.

انتهى الحاوي وخرج كعادته يتمشى على شاطئ البحر ليريح نفسه من عناء العمل وليستنشق هواء الليل قبل أن يذهب إلى فراشه فإذا بالرجل الصعيدي يقتفي أثره ويبادر بحديث الصندوق.

_ لا تؤاخذني يا حضرة. . . . أنا عاوز أكلمك، أنت أولاً أسمك إيه؟

_ خدامك جابر

_ عاشت الأسامي يا سي جابر. . . . تعرف يا جابر عبارة الصندوق دي مش نكته جوى جوي برده!

- إياك أنت تكون اهتديت لسرها بنباهتك من ساعة ما سبتك؟

_ لألأ! مش غرضي.

وأدرك جابر من لهجة محدثه أنه يحاول أن يكتسب صداقته؛ وكانت الليلة مقمرة، فلما نظر رأى عيني الصعيدي تلمعان بانفعال غريب فحدثته نفسه (ماذا يريد هذا الرجل مني؟) ولكن محدثه قطع عليه تفكيره.

- بجه مش تفتكر أن تخبيه المرة اللي معاك دي يخصر اللعبة بعض شيء؟

- برده يا خواجة لك حق، لكن يعني أمال حخبي مين؟

- ليه ما تخبيش واحد من المتفرجين؟ أهو ده يكون نكته تمام.

وأندهش جابر من هذا الاقتراح الشاذ وأجاب ساخراً

- يبقى نكتة أوي إذا كان واحد يرضى يوالس معايه! طبعاً إذا كنت أنت متطوع يبقى كويس. دا حتى ما يبقاش فيه فائدة للصندوق. الزعبوط بتاعك ده كفاية أوي، الزعبوط ده يخبي دستة. ثم ضحك مقهقهاً.

- ما تآخذنيش يامعلم! أنا راجل أحب الهزار.

- ولكن الرجل الغريب الأطوار تجاهل وقاحة الحاوي أو هو لم يسمعه فقد نظر حوله كمن يريد أن يستوثق من عيون رقيب، ثم أدنى فمه من أذن محدثه هامساً. اسمع! أنا راضي، أنا أتفق وياك. وتلفت حوله في انفعال عصبي ووضع يده في عبه وأخرج منها محفظة نقوده فاخذ ورقة ذات خمسين جنيها و يهمس.

- ما تفتكرش ياجابر أني مجنون، يمكن أطواري تظهر غريبة لك شوية، لكن أنا مش مجنون. أنا عاوز أتعلم اللعبة دي، وآدي خمسين جنيه علشان تعلمهالي ونعملها بكرة سوى قدام الناس وساور الحاوي الشك في سلامة عقل الرجل، ولكن المال أغراه فبينما هو يقلب الأمر على وجوهه إذا صوت إمرأة يرتفع في وحشة الليل حوله.

- كمال!! كمال!

ونظر جابر فإذا المرأة طويلة هزيلة في حبرة سوداء مقبلة عليهما.

وارتبك الرجل الصعيدي ارتباكاً واضحاً وظهر عليه الخوف، فقال مسرعاً:

- اسمع! دي مراتي أنا لازم أروح. أنا لازم أروح حالا. أنت اتفقت ولا لأ؟ فأخذ الحاوي الورقة من يد الرجل قائلاً:

- ما دمت أنت عاوز كده مفيش بأس.

- يمكن تقابلني بكره الساعة تسعة الصبح علشان تعلمني؟

فرضي الحاوي وانصرف الرجل إلى زوجته مسرعا كأنما هو يحرص أن لا تكشف عن صفة محدثه.

وفي اليوم التالي في الساعة المحدودة قابل الحاوي كمال وعلمه كيف يهبط قاع الصندوق مع الجزء الذي تحته من خشب المسرح بالضغط على زر خفي بأحد جوانبه، وكيف يفك أغلاله ويربطها بعد ذلك وكيف يرفع القاع إلى ما كان عليه.

وكان كمال برغم بدانته، وغرابة أطواره، وزعبوطه، ذكيا سريع الفهم تعلم في وقت قصير وأتقن اللعبة إتقان صبية الحاوي.

وكانت الحفلة في المساء وقام جابر بألعابه كعادته إلا انه كان كلما نظر إلى كمال رأى عينيه شاخصتين نحوه كأنما يربطهما بالحاوي خيط، فشعر بوساوس مقلقة وتوترت أعصابه وترك بهية تقوم بدور لا تحتاج فيه إليه فانسرق إلى البار وشرب بعضاً من الويسكي ثم رجع يعاود ألعابه.

وأتى دور الصندوق ولجابر من حدة الذهن وجرأة الخمر ما ألهمه هذه الديباجة:

اعمل أمام حضرتكم الليلة أيها السيدات والسادة، ما لم يعمله حاو في العالم أجمع لا قبلي ولا بعدي، فإرضاء لزبائننا الكرام اتصلت قبل الحفلة بخادمي من الجن الأحمر المدعو جنجلوت. . . لا تضحكوا أيها السيدات، نعم، خادمي جنجلوت الخفيف الذي سخره لي سليمان. وبعد الجهد الجهيد أيها السيدات والسادة رضى جنجلوت أن يأخذ أحد حضرات المتفرجين هذه الليلة ويحوله إلى المادة الهيولية ويصطحب روحه في نزهه سماوية.

من منكم أيها السيدات والسادة يحب أن يخاطر هذه المخاطرة؟ من عنده الشجاعة والإقدام؟. . . ألو ألو. . . إلا أونا إلا دوه. . . دقيقتين فسحة بين الكواكب يا سيدتي الو؟. . . حضرتك؟ لا؟ طيب تعالي أنت يا ست ، لأ؟ طيب بلاش لأ يا سعادة البيه، أنت ثقيل شويه على جنجلوت أنت يا استاذ يا صغير؟ بقي ما فيش حد يجبر بخاطر جنجلوت الجني الخفيف الظريف؟ ألو الو ألا أونا إلا دوه. . . ما فيش في الصالة واحد شجاع.

وظل المتفرجون بين ذلك يضحكون ولكن سرعان ما اعتراهم الصمت والدهشة إذ رأوا أحدهم يرتقي المسرح فعلا، وفي هذا السكون ارتفع صوت المرأة ذات الحبرة السوداء كما ارتفع في وحشة الليلة الماضية.

- كمال!!! كمال كمال !!! ارجع هنا.

صوت وحشي جهوري تفضح نبراته قسوة قلبها وأنانيتها. وتبينت أغلبية أهل الفندق كمال تاجر الصعيدي المتيسر والرجل الصامت المنعزل مع زوجته القبيحة، دائماً في شرفة الفندق الغربي. وتهامسوا فيما بينهم يرقبون بدهشة ما يحدث، وهابت نفوسهم إذ

رأوا شبه جنون في عيني الرجل ورأوا العرق يتصبب غزيرا من وجه الأسمر الأصفر. ولكن سرعان ما وجدت أنظار الخلعاء ما يثير الضحك في هيئة الرجل التعس، فنادى أحدهم ما تخافيش يا ستي ده المعلم كمال يخوف العفاريت ونادى آخر.

- حاسب ياكمال لا الجن يركبك وقال ثالث: ما تتظرفشى يا معلم في السماء لحسن عزرائيل يشوفك.

وغير ذلك مما تقهقه له الجماهير ولا يكاد الفرد يبتسم له. وكررت المرأة أنا بأقول ارجع يا كمال. فلم يكن بذلك من أثر سوى إسراف الناس بالضحك.

قيد الحاوي كمال بالسلاسل والأغلال وأقفل الصندوق بالأقفال والحبال ووقف عليه واكفر وجهه ووقف شعر رأسه وتمتم وهمهم وحضرت الجن وتصاعد البخار الأحمر فنزل عن الصندوق وفتحه فوجده فارغاً كما يجب. حدث ذلك طبعاً بين قهقهة الناس وهتافاتهم.

واقفل جابر الصندوق ثانية الخ. حتى نزل الدخان الأحمر من سقف المسرح، فرفع الغطاء ولكن كمال لم يرجع إليه! ارتبك الحاوي واقفل على عجل قائلا لنفسه (ربما لم أعطه الزمن الكافي) وشغل المتفرجين بلعبة أخرى بسيطة برهةً ما، ثم فتح الصندوق ثانية ولكن الصندوق بقي فارغا.

أدرك الجمهور عدم وجود كمال فارتفع همسهم إلى ضجيج وتساءل البعض صائحا: فين المعلم كمال؟: أوع ليكون اختنق الرجل في الصندوق الخ الخ. .

فتحدث إليهم جابر بحضور ذهنه المعتاد عن صعوبة رجوع بعض الأجسام من اللامادة إلى المادة، وخصوصا أجسام أهل الصعيد، حتى إذا استوثق انه أعطى الرجل ما يكفي من الوقت فتح الصندوق ثالثة ولكن بغير جدوى!!

لغط الناس وهاجوا وتسابق الشباب منهم يفحصون الصندوق ويعبثون بأدوات الحاوي، الذي أسرع إلى تحت المسرح يبحث عن كمال بغير نتيجة، وعلم مدير الفندق أيضا بالخبر فجزع وأرسل رجاله يبحثون. ولما رجع جابر إلى الردهة اندفعت إليه المرأة ذات الحبرة السوداء اندفاع الأعاصير في أمشير وقد بلغ منها الغضب أشده.

- ازاي يعني تأخذ راجل طويل عريض تحويه! هي الدنيا سايبه ولا ايه!؟ مسخرة وقلة أدب!!

- يا ستي بس اهدي شوية دلوقت يبان.

- يبان؟ أنا عاوزة جوزي دلوقت حالاً.

- هو أنا قلت له تعالى، ما هو هو اللي جه من نفسه.

- أبدا أنت حويته أنت راجل متختشيش......

إبليس يتوب. . .!

اطلع الشيطان ذات مساء على الأرض اختال في مجلسه وهو يشتم نسمات الليل والدنيا نائمة - الفردوس الذي طردته الكبرياء من رحمته. وانبث زبانيته ينفثون الشر عن أمره في أوكار الظلام؛ ففي كل منعطف شيطان صغير يتربص، وبين كل اثنين ثالث لا يريانه. . .

وسمع الشيطان في سكون الليل عابداً يتهجد، ما يبدأ ولا ينتهي من سجدة إلا لعن الشيطان. . .!

وأحس الشيطان لعنات الشيخ العابد تنصب عليه كما ينهال التراب على نار تتلهب، أو ينصب الماء على جمرة تؤجج

وصرت أسنان الشيطان من الغيظ، وانقدح من حاجبيه شرار كاللهب، أن عجز وعجزت زبانيته معه عن فتنة مثل هذا الشيخ الزاهد وإرادته على أن يتعلق بحظه من الدنيا وشهوات النفس، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة!

أفكان يعصم الشيطان من اللعنات أن يسلط على الناس جميعاً شهواتهم ويغري بهم أنفسهم؟ فكيف وإن عباده من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه باللعنة على مقدار ما ييسر لهم شهواتهم ويضاعف لهم من مسراتها؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعهم إلى طاعته. . .؟

وهبّت نسمة السحر تعطر الدنيا بأنفاس الجنة، فاستروح منها إبليس روح الماضي يذكره أيامه كلها منذ بدء الخليقة ويلقي التاريخ بين يديه. وتغشه الذكرى وعاد الزمان القهقري أمام عينيه؛ فإذا هو ملك بين الملائكة يسبحون بحمد ربهم حافين من حول العرش؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربه أبياً مستكبراً أن يسجد لبشر من طين؛ وإذا هو من بعد مطرود من رحمة الله، مذموم مدحور يلعنه الفضاء ويسبُّه الأبد؛ ثم ينفث نفثته في صدر حواء فينزلها وزوجها عن الجنة فيخرجهما مما كانا فيه، ويتعقب أبناءهما من بعدهما على الأرض يصنع منهم حطب جهنم، فما بشر من الناس إلا شيطانه يسعى بين يديه. . .

ثم هو في موقفه ذاك تتناثر من حوله لعنات الناس سواء منهم طائعة وعاصيه. وتصك أذنيه من مكان سحيق زفرات عباده في نار جهنم تكوى جباههم وجنوبهم بما أغواهم الشيطان وأضلهم سواء السبيل!

ولأول مرة استشعر إبليس لذع الندم فدمعت عيناه. . .!

يا لها من سخرية. . . إبليس يتوب. . .! لقد كفاه ما اقترف منذ هبط من السماء انتقاماً لكبريائه التي زعمها يوم أمر أن يسجد لصلصال من حمأ مسنون!

أكانت توبة نصوحاً، أم مبالغة في الانتقام، أم هو يشتهي أن يعيش بشراً بين البشر عمراً من عمره، ليذوق بعض لذّات البشرية، ويرى بعيني حسه كيف يفتتن بها الناس جميعاً منذ كانوا فتسرع بهم شهواتهم إلى طاعة الشيطان. . .؟

وطلع إبليس على الأرض فتى وسيماً يمشي على قدمين مشي الناس. وشعر لأول ما لبسته البشرية أنه جائع، فعاجَ على ندى ساهر له به عهد، لأنه هو الذي أنشأه وأقامه حجراً على حجر، وطالما قضى الليالي ذوات العدد من حيث لا يراه الناس؛ ينفث الشر، ويبذر بذور الخطيئة، ويفتن في وسائل الإغواء. . .

كانت مصابيح الندى ترمي أضوائها إلى بعيد، وتمد من أشعتها شركاً بصيد الناس ويأخذ عليهم طريقهم؛ وكان كل ما ينبعث منه يشعر أن هناك حركة وعملاً يغريان من يلتمس إرضاء شهواته. . .

ولكن. . . ولكن ها هو ذا إبليس يصعد الدرج في أناة ورفق، ويدفع الباب في هدوء وخفة، ويخطو إلى البهو في سكون وحذر، فيرى، ولكنه يرى أجساداً لا تكاد تتحرك، ويسمع، ولكنه لا يسمع إلا مثل أنفاس النائمين؛ ويشهد، ولكنه لا يشهد إلا عيوناً محدقة في الفضاء تتأمل. لم يكونوا سكارى ولا مغيبين، ولكن فكرة واحدة كانت تسيطر عليهم جميعاً، فكرة بين السخط والرضي، وبين الندم والاستغفار!

وجلس الشيطان إلى مائدة وحده وطلب طعاماً، وراح يدير عينيه فيما حوله ومن حوله، ويتسمع نجوى الضمائر الخفية تهمس في أعماق أصحابها

ورأى مائدة خضراء مبسوطة، قد تناثر عليها هنا وهاهنا نقد وورق، ورأى كؤوساً فارغة وممتلئة، ورجالاً ونساء قد تحلقوا حول المائدة، ذراعاً إلى ذراع، وامرأة بين كل رجلين. . . ولكن يداً واحدة لا تمتد إلى شيء، وفماً واحداً لا ينبس بكلمة. . .

وأبصر رجلاً يهتز في موضعه هزة خفية وهو يتحدث إلى نفسه: كيف يصنع وقد فقد كل ما كان معه من نقد، إنه ليرى ماله أمامه على المائدة ولكنه ليس من حقه، لأن حظه في اللعب قضى به لغيره، وهو قضاء غير مشروع ولكنه حكم العرف فما عليه إلا الطاعة؛ وقالت له نفسه: ما أنت والقمار؟ شد ما نهيتك فلم تنته! الآن فذُق ألم الحرمان مما تملك، فلعلك من بعد ألا تستمع إلى إغواء الشيطان. . .

واختلج إبليس حين ذكر أسمه اختلاجه كادت تنم عليه؛ وهمّ أن ينهض، لولا أن أقبل النادل عليه بالطعام

وشُغل إبليس لحظة بالأكل، يزدرد اللقمة بعد اللقمة يكاد لا يحرّك بها فكيه؛ وعرف لأوّل ما ذاق الطعام ـ لماذا كانت شهوة البطن أول هم الإنسان. . .!

وعاد ينظر إلى وجوه الناس وضمائرهم، فما راعه إلا هذا المقامر الرابح محدقاً في الفضاء يتفكر، وإن وجهه لتتعاقب عليه شتى ألوان الندم والخزي والحياء. . . ثم لم يلبث أن نهض يجمع المال على المائدة فيفرقه في سماره وهو يقول: معذرة يا صحابتي، فإنما هو مالكم ليس لي حق منه في شيء، وما لعبت لأسلبكم ما تملكون، إنما أردت السلة وإزجاء الفراغ. وعضّ على شفته واحمر وجهه، إذ كان يعلم أنه يكذب في اعتذاره؛ فما كان ليقامر إلا مؤملاً أن يربح، وما كان ليربح مرة إلا وهو يعلم أنه يأخذ ما لا يملك؛ وقد ربح الليلة، ولكنه حين ضمّ يديه على المال أحسّ كأنه يقبض على جمر؛ ورفت به سانحة من الخير، فتعفف أن يأكل مال الناس فخرج عنه لأهله. . .!

ونظر الرجل إلى يمين، فإذا صاحبته مطرقة قد تغرغرت عيناها، فمال عليها وهو يهمس:

(أيكون قد أغضبك ما فعلت يا سيدتي؟)

قالت المرأة: (عفواً ليس لي شأن بذاك، ولكن أمراً يقتضيني أن أعود مسرعة إلى الدار. . .!)

وهبت واقفة، فقال الرجل: (خير. . . .! أتأذنين لي أن أصحبك؟)

قالت: (شكراً. . .!) وسارت في طريقها فما ألح الرجل ولا تعوقت المرأة، ومالت إلى غرفة في الندى تأخذ زينتها في المرآة فأدركتها صديقة، ونظرت كل منهما في وجه صاحبتها فأطالت النظر ثم أطرقتا. .

منذ بعيد تقترف هاتان المرأتان الإثم في غير حذر ولا تذمم؛ أما إحداهما فضحية شاب غوى أغراها حتى نال منها ثم اختفى من وجهها وخلّف بين أحشائها بضعة منه، ففرّت بجريمتها من قانون الجماعة إلى حيث تشفي قلبها بالانتقام من الرجال

وأما الأخرى فزوج كالأيم، أو هي أيم وإن تك ذات بعل؛ فما شعرت يوماً أن لها حقاً على رجلها، وإنه لذائب التجوال بين البلاد، ولا تستقر به الدار في حضن زوجته أياماً حتى تعرض له الأماني تغريه أن يضرب في الأرض يطلب المجد بالثمن الغالي. . . بشرف زوجته. . .!

لم تحس المرأتان قبل الليلة معنى من معاني الندم؛ فمالها الليلة مطرقتين لا تنبسان؟

أرأيت إلى المجرم إذ يفاجأ وهو يقترف جريمة منكرة، فليس يملك أن ينكر ولا أن يعتذر؟

وعاد نظر المرأتين فالتقيا فإذا هما تتعانقان وقد أجهشتا باكيتين، وأطفأت دموع الاستغفار وقد النار ولذع الندم، فكأنما حلت في جسد كل منهما روح جديدة قد خرجت من الجنة لساعتها لم تتعلق إنما ولم تحترف معصية

وتلفت الشيطان فإذا الندى مقفر خالٍ ليس فيه إلا النادل يسعون بين الموائد الخالية، يرفعون الأوراق والأقداح ويصففون الكراسي والمناضد

وتنفّس الصبح فأبدل إبليس ثياباً بثياب، وانطلق إلى البحر، يستمتع به ما يستمتع البشر، ويملأ عينيه وقلبه من مفاتن دنيا الناس. لقد كان له في البحر معهد يرتاده زبانيته يعلمون الناس السحر وينصبون شرك الفتنة؛ وهو ذا البحر، فأين فتنته وسحره، وأين مباهجه التي كانت؛ أين الأجسام البضة، والأذرع الغضة، والسيقان الملفوفه، والصدور النواهد؛ وأين العيون التي ترمي فتصمي، وأين لآلي البحر تغوص وتطفو، وأين الزبد الأبيض يلاطم الزبد الأبيض

لقد خلا البحر من عرائسه، إلا عجوزاً مقرورة مستلقية على الشاطئ، ما يبدو منها إلا عينان كصدفتين ملقاتين في كومة رمل! وهذه فتاة تمشي على استحياء مستندة إلى ذراع أخيها، فما تعرت من برنسها إلا ليسترها الماء. وهذا رأس رجل يبدو سابحاً من بعيد، ما يكاد يرى الفتاة حتى يتنكّب عن الطريق لئلا تتأذى منه الحسناء الصبوح

وأحس إبليس أول آلام البشرية في الوحدة والفراغ والضجر، فمضى على وجهه ممتلئ النفس فارغ الفؤاد. لقد ودّع عالمه الموحش تحت الرغام ليظفر بالأنس في عالم البشرية، فما ظفر إلا بالوحشة وألم الشعور بالحرمان؛ وخلع عنه شيطانتيه تائباً ليهب للناس الاستقرار والسلام، فما لقي هو في بشريته إلا الاضطراب والألم

واطمأنت الحياة بالناس، فاجتمعوا على الرضي والطاعة في حالٍ شر منها السخط والعصيان؛ إذ لم يكن ثمة عدوان يدعو إلى المقاومة، أو تربُّص ينبه إلى الحذر، أو كيد يستتبع الحرص واليقظة؛ وعاد كل فرد أمة وحده، يعيش في رضى وقناعة على أكمل ما يكون الإنسان صلاحاً وحباً في الخير، ولكن الجماعة لم تجد ما يشد وحدتها ويربطها آصرة إلى آصرة. ودب النعاس إلى أجفان الحياة: فمات الطموح لأنه باب من التكبر؛ وخمد النشاط، لأنه جهاد في غير عدو؛ واستنام الناس إلى القدر، لأن التمني ضرب من الأثرة؛ وعاش نصف الناس عيالاً ع وعلى نصف الناس؛ فليس ثمة عمل للشرطة والجيش ورجال الحكم؛ وأنى لهم أن يعملوا ما دام لا سرقة ولا قتال ولا عدوان؟

وكسدت سوق الإقفال ؛ وما حاجة الناس إلى الأقفال ؟

وقال فتى لصاحبه: تعال نلتمس نزهة في غير ساحة (المولد)؛ فما لنا ولهذه المهرجانات التي لا تجتمع إلا على شر ولا تحشد الناس إلا لمعصية؛ حسبي أن أعمر قلبي بذكر الله وأتخذ أولياءه قدوتي وإمامي. . .

وأمن صاحبه على قوله؛ ولكن البدال، والبقال وبائع الحمص، وصانع الحلوى، ومدير الملهى - لم يعرفوا لماذا هجر الناس المولد؛

فمضى الموسم ما باعوا ولا اشتروا ولا تعوضوا، وقوض كل منهم خيمته ومضى غير مأجور على جهاده!

وقال بعضهم لبعض: (أترون الناس قد نسوا أولياءهم فتمردوا على ما اعتادوا؟)

فأجاب شيخ كبير: (ذلك من عمل الشيطان. . .!) وأراق الخمار أحمره وأصفره وهو يقول: (ليت خمري كانت خلاً. . . .!)

وجلس قاضيان يداولان بينهما الرأي:

(أيهما خير: أن تعيش الفضيلة وحدها على الأرض، أو أن تنبت بين أشواك الرذيلة والمنكر والشر، فيكون للإنسانية منها أفراح ثلاثة: فرح النفس المؤمنة بها، وفرحها بالصبر على المجاهدة لها، وفرحها بالظفر بعد مشقة الجهاد. . .؟)

ونظر الشيخ الزاهد في صحيفة أعماله، فإذا هي بيضاء أو كالبيضاء؛ فليس يضاعف الأجر إلا المقاومة. ولو أن عابداً قضى الدهر كله راكعاً ساجداً، ما عدل أجر عبادته كلها ثواب ساعة لشاب تتجاذبه شهوات الدنيا، كلما هفت نفسه إلى معصية رده عنها الأيمان والتقى، فهو أبداً في مجاهدة لا يهدأ، وهو أبداً مأجور أجراً لا ينتهي!

وإنما يقظة الحياة في الجهاد والمقاومة وتوقع ما يأتي به الند على شتى ألوانه؛ فإذا عدم الجهاد، وفقدت دواعي المقاومة، وعاش الإنسان لساعته التي هو فيها - أعمى أو كالأعمى لا يبصر ما أمام - فقدت الحياة معناها الأسمى، وعاش الناس في هدى أشبه بالضلال، وفي فضيلة شر من الإثم والفسوق والعصيان!

ليتك تدري أيها الزاري على القدر. . .! هل تستوقد النار إلا بالحطب؟ فمن أين لك ما دمت تشفق على الغصن اليابس والهشيم الجاف!

وهل يعلم الفاسق والعصاة من بني آدم، أنهم قبل أن يكونوا في أخراهم حطب جهنم ـ كانوا في دنياهم سلم البشرية إلى مثلها الأعلى. . .؟

وتثاءب الشيطان وتمطى إذ أدركه النعاس الذي ضرب على عيون البشر؛ وإذا هو وقد خضع لناموس البشرية قد ناله ما ينال الناس من الضيق والملل وتقلب الرأي؛ إذا تقلقلت دنياه طلب الاستقرار، فإذا استقر عاد ينشد الحركة ويتبرم بالسكون. . .!

وقلب وجهه في السماء كاسفاً محزوناً، ثم أسند رأسه إلى راحته وجلس يتفكر. . .

أي خير كان يقدم هو للجماعة البشرية على حين كان لا ينبغي إلا الكيد والانتقام؟ هذه الدنيا تنام بعد يقظة، وتسكن بعد حركة، وتسترخي بعد نشاط، لأنه هو قد بطل سحره، وإذ لم يعد في الدنيا شر، مات في الجماعة روح الانبعاث إلى الخير. .!

أيها الخالق العظيم، ما أعجب تدبيرك وأدق حكمتك! خلقت الشر والخير يصطرعان في هذا العالم لتوجد منهما الخير الأعظم، وأنا ـ أنا الشيطان المشئوم ـ حسبتني يوماً أكبر مما أنا، حين ذهبت أهدم ما تبني، واعصي ما تأمر، وأدعو إلى ما تنهي، فلما آذنت أن تذل كبريائي، أريتني نفسي إلى جانب عظمتك، فإذا أنا، أنا الذي زين له الغرور يوماً أنه أكبر من أمرك، إذا أنا أعصى عصياني في طاعتك، وأفسد إفسادي لإصلاح عبادك على قدر منك وتدبير حكيم. . . .!

وشعر الشيطان بالخيبة تلاحقه في كل مكان، فلا هو هناك - في عالمه الشيطاني - كان موفقاً فيما يحاول الانتقام من بني آدم، ولا هو هنا. . .

وعاودته نزعة شيطانية لم يلبث أن قمعها في صدره وانطلق في سبيله

وانتهى إلى البستان المعشوشب المخضر وقد نال منه الإعياء فارتمى على العشب الرطب يستريح في ظل وارفة لفاء، وطلع له من بين ملتف الحدائق حسناء وضاءة، تمشي كما يهتز الغصن وترنو كما يبتسم الزهر

وأحس إبليس مرة أخرى أن قانون البشرية يعمل في دمه وأعصابه، وأطال النظر إلى الحسناء الفاتنة ثم أطبق عينيه وهو يتنهد، كأنما قد توهم أنه قد احتوتها أجفانه، وشعر بمس الحب في قلبه فأشرق وجهه بابتسامة فيها لمحة من السرور وغير قليل من الألم

وجلست الحسناء جلستها على العشب غير بعيد، وضمت إليها أطراف ثوبها يستر شيئاً ويكشف عن شيء، مستأمنة مطمئنة

وخطا إبليس خطوتين إلى حيث جلست يسألها شيئاً، فاستحيت حواء الصغيرة وأرخت فضل ثوبها على الوجه الفاتن، ووقف إبليس ينشد قصيدة غزل طويلة، وعتها حواء كلمة كلمة ومعنى معنى، ولكنها لم تنبس، ومد إليها يداً يستنهضها فما نهضت وازورت عنه معرضة، وسكت ولكن عينيه ظلتا تتحدثان حديثهما

وأربد وجه المرأة من غضب، فما رأى إبليس غضبتها إلا فناً جديداً من فنون جمالها، فقالت وقد ضاقت به: (إليك عني يا فتى وخل سبيلي. . . .!)

وضاق صدر الشيطان بهذه الإنسانة العتيدة، وثقل عليه أن يعجز عن نيلها وهو هو!

كم فتاة وامرأة قبل صاحبته تلك كانت من عباده وأتباعه ما تابت واحدة منهم على ما أراد لها؛ على أنه اليوم يريدها لنفسه هو، فليس به اليوم حاجة لأن يسعى لغيره وقد خلع شيطا نيته!

ماذا. . .! أيعيش هذه الآلاف من سنيه الماضية يتحكم في البشرية كلها، وعلى إرادته، ويسعى بين الناس، ويصل بين الأحباب، ويقدم الثمرة لكل من يشتهيها؛ حتى إذا اشتهى هو أن يذوق تلك الثمرة أعجزه أن ينالها. . .؟

وللمرة الثانية منذ خلق شعر أن كبرياءه جريح. . .!

لقد أبى أن يسجد لأبي البشرية كلها وفسق عن أمر ربه، أتفسق عن إرادته امرأة؟ وما هو إن لم ينلها؟ وما هي حتى تتأبى عليه كل هذا الإباء؟

وعاود احتياله يستجدي الحسناء بعض الرضي، فولّت عنه معرضة مستكبرة، ومضت تدوس بقدميها الصغيرتين قلب إبليس. . .!

وعاد إلى نفسه يستلهمها الحيلة فما أمدته بشيء، وبدا إبليس في بشريته إنساناً ضعيفاً قليل الحول، لا قدرة له على التصرف ولا طاقة له بالاحتمال. . .

ووجدت له شغلاً من فراغ. . . وعدا خلف المرأة يحاول أن يدركها ما يبالي نظرات الناس؛ فإذا زوجها يلقاها على الطريق فيصحبها إلى الدار يداً في يد وجنباً إلى جنب!

وأحس إبليس فوق ألم الحب الذي يجد ألماً جديداً من آلام البشرية، وقذف منظر الزوجين المتحابين في قلبه الحسد. . .!

وآده العجز والشعور بالحرمان، فعاودته شيطانيته ثائرة محنقة. على أنه وقد ذاق بعض لذات البشرية في آلامها لم يكن يريد أن يرتد إلى عالمه، إنما كان حسبه أن يستمد الحيلة من طبيعته الأولى بمن يحب وهو باق في بشريته!

ولكنه - وا أسفاه! - لم يستطع أن يكون شيطاناً ورجلاً في وقت معاً؛ وحين ألهمته طبيعته الأزلية بالرأي فقذف بالفكرة المحرمة في قلب المرأة - كان خلقاً آخر ليس من البشرية ولاحظ له من أعضاء المرأة. ونظرت الحسناء إلى وراء تفتقد عاشقها المد نف فما رأته، وما كان لها أن تراه وقد عاد شيطاناً لا يخضع لنواميس هذا العالم؛ ورآها هو تنظر متلهفة مشتاقة، فما نالته نظرتها ولا مسّت قلبه؛ لأن إحساس البشرية ونوازعها كانت قد فارقته حين لبس جناحي شيطان. . .!

وكتب في تاريخ الأرض، أن إبليس قد تاب مرة، ولكن ردته إلى شيطا نيته امرأة. . . .

الأموات لا يكذبون

أحببتها حتى غلب علي فيها الذهول، ولماذا أحببتها؟ أغريب شأني إذا لم تر عيناي إلا كائنا واحدا، ولم تحمل نفسي إلا فكرة واحدة، ولم ينطوي قلبي إلا على أمنية واحدة، ولم يتسع فمي إلا لاسم واحد؟ ذلك الاسم الذي يصعد من فمي تكرارا. من أعماق روحي مرارا، كأنه ينبوع متفجر. أقوله وأعيد فيه القول ثانية وثالثة كأنه صلاة اذكرها وارددها.

لن أقص عليكم ما غشيني في هذا الحب، ومتى كان للحب حكايات متعددة، ورواياته في كل زمان ومكان واحدة. قد رايتها وأحببتها، وهذا كل ما في روايتي.

قضيت زمنا - ويا حبذا ذلك الزمن - يغمرني عطفها، وتحوطني بذراعيها، وتشبعني نظراتها، ورداؤها وكلماتها. بل فنيت فيها حتى غلب علي الذهول فأصبحت لا ادري: أذلك الليل أو النهار يحيط ني؟ وأنا في قيد الحياة أو في سجل الأموات؟ وهل أنا على أرض غير الأرض؟

والآن ماتت، كيف ماتت؟ لا ادري. . لا اعلم، دخلت علي أمسية ليلة من ليالي الشتاء مبللة الأثواب فنامت، وهي ترسل السعال ملحة فلزمت سريرها مضطرة.

وبعد ذلك لا اعلم.

الأطباء حشدناهم من كل صوب. فكانوا يقدمون ويكتبون العلاج ويذهبون.. وجبينها متوقد. ونضرتها ساطعة، لكنها كئيبة.

أكلمها فتخاطبني، ولكن ماذا قلنا؟ لا أعلم. . قد نسيت كل شيء. . كل شيء. إنها قضت ولا أزال اذكر تنهد الخفيفة وضعفها الحاد

وفجات سمعت صوات من حولها ففهمت أن الأمر انقضى.

فغلبني البكاء.

أمسيت لا أعرف شيئا، ولكني اذكر الأكفان الذي ووريت فيه إلى الأبد.

نزلت في التراب، ، انطلقت وطفت في السبل شاردا، وعدت أدراجي، وفي الصباح الباكر حملت نفسي على العودة إلى منزلي وعندما وقع نظري على غرفتي. . غرفتنا وسريرنا ومتاعنا. وكل ما يخلفه الميت وراءه، شعرت بان أنفاسي تضيق، وبان كآبة تتمدد في إحناء نفسي فتزيد صدري حرجا. وتبعثني على إلقاء نفسي من النافذة. . . لم استطع البقاء طويلا في هذه الغرفة التي تتراءى لي فيها زوجتي، فأسرعت عازما على الخروج فوقع ناظري على تلك المرآة المصقولة التي كانت تقف إزاءها ناضرة إلى وجهها وجسدها كل يوم، تتقن زينتها تجاه هذه المرآة التي كان رسمها ينعكس فيها، ولا يزال يتراءى على صفحتها فأدركنني رعشة عميقة، وعيني خلال ذلك لا تبرح المرآة العميقة الفارغة التي احتوتها - قبل اليوم - فخيل إلي أنني أحب هذه المرآة فلمستها فإذا هي باردة. . .

ولكن الذكرى، الذكرى!! المرآة الملتهبة المعذبة.

إلا أنهم سعداء، من تشبه قلوبهم هذه المرآة ترتسم عليها الظلال ثم تمحى. وتنسى كل ما ارتسم عليها وارتسم فيها.

خرجت من المنزل لا الوي علي شيئ . ولا اعلم أية وجهة اسلك!؟ فدخلت المقبرة فألفيت ضريحها المنفرد على البلاط الرخامي نقش تحته

(إنها أحبت وكانت مخلصه في حبها ثم ماتت. . .)

إنها تحت هذا الضريح قد عبث فيها الفساد! مكثت هنالك طويلا خاشع الرأس حتى واتى المساء، ولكن خطرة غريبة صعدت من نفسي هي خطرة عاشق يائس تحدثني وترغمني على قضاء الليل بجانبها ذاكراً باكياً، ولكن الناس سينظرون إلي وسيطردونني فما عسى اصنع؟ نهضت وأبديت لمن يراني إنني ضال بين القبور، فسرت وأمعنت في السير، ولكن لا يضل إنسان في مدينة الموتى مثل ما يضل في مدن أهل الحياة، الذين يتخذون القصور الشامخة والدور الباسقة والسبل الفسيحة أما الموتى الذين ذهبوا إلى أعماق الثرى أولئك لا ينالون شيئا. . . سوى رقعة من الثرى تضمهم والنسيان يطوي أسماءهم.

في زاوية من زوايا المقبرة الآهلة بسكانها وقع نظري على المقبرة العتيقة التي اختلط رفات أصحابها بالتراب،.

كان يغشى تلك المقبرة أوراق سوداء، كأنها حديقة كئيبة شامخة تغذيها لحوم الموتى.

آويت إلى جذع شجرة تواريت به عن الناس. ولبثت مرتقبا قابضاً على الجذع كما يقبض الغريق على بقية من بقايا زورقه المحطم

حتى مد الظلام رواقه، فغادرت مكاني وطفقت أطوف متمهلا بين القبور

بحثت كثيراً وأنا أتلمس قبرها. فكنت أسير باسطاً يدي. وفاتحاً عيني، وواثباً بين القبور على غير هدى، فكم قبور لمحت، وكم رسوم وقفت عليها كأعمى يود أن يهتدي إلى سبيله فلمست حجارة. وأكاليل ذوت أزاهيرها، وأكاليل من زجاج. وتلوت أسماء كثيرة بيدي ولكنني لم أجدها.

لا قمر في السماء يزيح هذه الظلمة الداجية.! وباله من ليل بعث في نفسي الهول. أغشى الطريق تغمر جانبيها القبور. القبور عن يميني والقبور عن شمالي. والقبور أمامي وورائي. أعياني السير فاستويت على ضريح فسمعت خفقان قلبي وسمعت شيئا غير خفقانه.

ماذا اسمع؟ أهذه وساوس تعيث في رأسي؟! وهذه أسماء تتصاعد من الأرض الطافحة بأشلاء بني الإنسان؟ كم مضى علي من الزمن وأنا لابث في مكاني؟ لا أعلم: ولكن الخوف قابض على قلبي بكلتا يديه لا يبرحه. همت باكيا أصيح، وأوشكت أن اقضي نحبي.

فجأة شعرت بأن لوح الضريح الذي أتخذته مقعداً لي بدأ يتحرك كأن شيئا تحته يزيحه، فأبتعد عنه مذعوراً وإذا باللوح يمشي. . . وصاحبه ينتصب بهيكله العظمي. أزاح بظهره المقوس لوح الضريح فألقاه على الأرض

فقرأت على اللوح برغم الظلام الحالك: (هاهنا يرقد (جمال علي) المتوفى في الخمسين من عمره. كان باراً بأبويه: وكان صالحا شريفاً. ومات وهو يصلي)

رأيت الميت يحدق في هذه الكلمات ثم جاء بحجر مسنون يمحوها حتى لم يبق لها من اثر. ثم اخذ ينظر مكانها وتناول عظمة من عظامه وسطر عليها بأحرف بارزة (هاهنا يرقد جمال علي المتوفى في الخمسين من عمره. قد عجل موت والديه لعقوقه، وأضنى امرأته. وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيراً).

أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها، وغادرت مكاني فإذا القبور جميعها متفتحة، وسكانها جميعا بعثوا من مراقدهم، ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة، فوجدت جميع الموتى. رايتهم جميعا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقة أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجهلها أبناء الحياة.

شعرت - إذ ذاك - بان محبوبتي خطبها خطبهم، فجعلت إليها نافضا عني الخوف، ومن حولي القبور المفتوحة. والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة. عرفتها إذ لمحتها، ولم أتوسم وجهها المتصبب عرقا. وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (إنها أحبت وكانت مخلصه في حبها ثم ماتت. . .)

قرأت هذه الجملة الثانية (خرجت يوما لتخون زوجها فأصابها برد أودى بحياتها)

ويبدو لي أنهم عثروا علي راقدا عند شروق الشمس على أحد القبور.

محاكمة ضابط

ملحوظة : هذه الإحداث من وحي خيال الكاتب .. وأي تشابه في الأحداث أو الشخصيات أو الأسماء هو من قبيل الصدفة لا أكثر ..

عاشت مصر على مدار سنة كاملة عندما حكم جماعة الأخوان مصر في مسرحية كوميدية لكنها أشبه بالكوميديا السوداء»، تلك الجماعة التي حاولت تهييج وتأجيج الرأي العام في الداخل، وبث السموم لزعزعة الأمن والاستقرار. فكانت تلك القصة كما يرويها الضابط إثناء محاكمته

وقف المتهم ، وهو ضابط في ريعان شبابه فارع القامة وثيق البنيان تلمع عيناه السوداوات تحت حاجبين كثيفين مقرونين فوق انفه ، وعلى كل من كتفيه تبرق ثلاثة نجوم نحاسية ، وقف المتهم حيال هيئة المحكمة

وتطلع عليا في النائب العام العسكري حتى اضطر هذا إلى إن يطرق ببصره متشاغلا بتقليب بعض أوراق ملف بين يديه . حينئذ توجه المتهم

بنظره إلى رئيس المحكمة التي كان يتصدر المنصة يحمل شارات رتبته وكل أوسمته ويحف به من الجانبين أعضاء المحكمة وكلهم ضباط من مختلف الرتب والأسلحة في الجيش ، وقال :

سيدي الرئيس

أقف بين يديكم لألقي كلمتي الأخيرة قبل أن تصدروا حكمكم علي ، فأرجو إن يتسع صدركم وصدر النائب العام العسكري لهذه الكلمة. أنها الكلمة الأخيرة لي أمام محكمتكم وربما كانت الأخيرة لي في الحياة كلها . بالأمس أوكلت الكلام عني إلى محامي وقد قام بجهده مشكورا.

رغم إنني على يقين انه لا يستطيع اقدر المحامين أن يطلبه لمتهم مثلي ، تكاتفت عليه الوقائع وطوقه النائب العام بأغلال فصاحته وبيانه ، غير الرأفة والرحمة ؟

وقد كان في عزمي أن اكتفي بمرافعة محامي وأتقبل حكمكم بعده لولا آن خاطرا

تسرب إلى ذهني وألح على تفكري طوال الليلة الفائتة . هذا الخاطر كان يدعوني،

ما دمت مقدما على الحقيقة الكبرى التي ستتلفظ بها

شفاهكم، إلى إن أقول كل شيء، أقول كل الحقائق الصغرى التي اعرفها أو التي عرفتها في هذه الأيام الأخيرة . كان هذا الخاطر يصور

لي إجراما ، أكثر من الإجرام الذي اتهمني به النائب العام ، أن أختم

بهذه الحقائق الصغيرة لنفسي ويلح علي إن أقولها بصراحة وبصوت عال . إن أقولها ... للتاريخ ؟ كم أقولها يا سيدي الرئيس ويا سادتي

الأعضاء للشعب .. ولكن على أن اعترف إني أومن بكم وبهذه المحكمة التي امثل أمامها أكثر من إيماني بالتاريخ

ومحكمته . كل الذين يقولون بان التاريخ ينصف مظلوما أو يحاسب مجرما افلتته محاكم أيامه هم أما منخدعون أو قليلو المعرفة أو هم سيئ

النية .. ولكن علي يا سيدي الرئيس أن لا استرسل كثيرا وان أصل سريعا إلى الحقائق الصغيرة التي ألحت على خاطري في الليلة الفائتة برواياتها وبأن انفضها أمام محكمتكم بصراحة ، وببساطة .

قبل كل شيء أريد إن أطمئن النائب العام إلى أن هذه الحقائق الصغيرة لن تفعل شيئا في الطوق المتين الذي احكمه حول عنقي ، والى انه ما دام قد طلب رأسي فسينال راسي ، ليطمئن ، بل ربما وجد في هذه الحقائق الصغيرة ما يعينه على إحكام ذلك الطوق لو أن في التهم التي صاغها لي زيادة المستزيد . إنا متهم بعصيان الأوامر العسكرية وبقتل المواطنين الأبرياء وبالتآمر على كيان الدولة والنظام القائم ، وفوق ذلك كله إنا متهم باني خائن ... خائن للثورة . إن التهم الأولى التي أثبتها النائب العام على تكفي وحدها ، أو بعضها ، لان تفقدني الحياة ، فما بال التهمة الأخيرة ؟ إنا خائن للثورة !... أنها ليست تهمة

تقتل يا سيدي الرئيس بل هي سبة تلحق روحي بعد الموت وتلصق باسمي حين لا يبقى على وجه الأرض جسد يحمله . كم أنا معجب يا سيدي الرئيسي بمقدرة النائب العام العسكري على أحكام الشبكة حول فريسته حتى لا يترك النجاة لها مهربا ! أنها قدرة هائلة تزود لها بالعلم والفراسة

وطلاقة اللسان وزادت مضاء بالمران ! .. لقد أشاد النائب العام بي ، بمواهبي ، بتقارير رؤسائي المشرفة عني ، بميولي الثورية

واندفاعي المنهل في الطريق التقنية، ورفعني بإطرائه إلى القمة ليحسن بعد ذلك إلقائي في الهاوية السحيقة التي حفرها لي في أصل تلك القمة، هاوية اتهامي باني خائن للثورة. إني اخفض هامتي احتراما لمقدرة النائب العام ، واصل لحوادث اليوم المشهود الذي جعلتني حوادثه مجرما ، ولا اطعن أبدا في صدق احد من الشهود الذين قدمهم للشهادة ، بل إني اعترف أمامكم بوجدي الشديد ببعض هؤلاء الشهود . ولكني رغم ذلك كله.. أريد إن اروي أمام محكمتكم الموقرة حقائقي الصغيرة يا سيدي الرئيس .

تريدون مني إن لا أطيل وان أبدا برواية الحقائق ؟ حسنا يا سيدي، سأبدأ حالا . ساندا قبل كل شيء برواية الوقائع ... ولكن في الوقائع من أين أبدا بها؟

لولا أن تظنوا ني السخرية لبدات بيوم خلق السموات والأرض)

فكل وقائع هذا الوجود تبدأ بتلك اليوم ولكن ذلك تاريخ بعيد، سوف أبدأ باليوم الذي قامت فيه القيامة التي امثل من اجلها أمامكم ألان .

في ذلك اليوم وكلت لي مهمة لا يستطيع غيري أن يقوم بها وان علت مرتبته وسما مقامه ، لقد غاب رئيسي ورئيس رئيسي في الفرقة التي إنا ضابط في إحدى وحداتها فأنيط بعاتقي الواجب الذي توسم في القادة الأعلون كفاءة القيام به ، والذي من اجله مرض رئيسي واستدعى

رئيس رئيسي إلى مهمة في بلدة نائية . كيف حدث هذا فتخطى ذلك الواجب السامي أعناق الكبار ليقف عندي ؟ حيث ذلك لأني شاب قوى الشكيمة ماضي الإرادة والاندفاع والاتجاه التي تسير فيه ثورتنا المقدسة ... إني لن افصل في ماهية ذلك الواجب

فقد كفاني النائب العام العسكري مئونة ذلك ، بل انه قد أورد في حرفيتها نصوص الأوامر التي تلقيتها شفاها وكتابه من القادة الأعلين . كان واجبي واضحا. في هذه المنطقة التي تعسكر فرقتي كانت ستقوم ثورة على الثورة .... استغفر الله والوطن ، بل سيقوم عصيان على الثورة ، فكان على إن أحطم هذا العصيان كما يجب أن تحطمه إنا الضابط

المؤمن بأهداف ثورتنا التي تقوم في وجهها هذا العصيان ، أنها فرصة ثورتنا العظيمة التي لا تعوض ، للخلاص من الرجعيين والمخربين والخونة ومن كل يد مجرمة . وقد انتهى إلى ، أنا الضابط المبتدئ المتواضع الرتبة ، شرف أن أعير ساعدي لثورتنا نحطم بها السفلة ، حثالة الحثالات . قال النائب العام العسكري أمامكم

إن كل ما كان متوقعا ومهيأ قد تم ، فنشب العصيان وانكشف الرجعيون والمخربون والخونة وأتيحت للثورة فرصتها العظيمة للقضاء عليهم ، إلا إن الساعد

الذي كان عليه أن يبطش ويضرب الضربة القاضية قد تهاون وتخاذل بل تآمر وانقلب . ذلك الساعد هو ساعدي . لذا حكم على النائب العام بانى مجرم أثيم ووصمني فوقها باني خائن ... خائن للثورة . أي ثورة

يا سيدي الرئيس ؟ إن إحدى حقائقي الصغيرة تقوم على أن هناك ألوانا من الثورة يجب أن نميز بينها ، وكان على النائب العام أن يوضح لمحكمتكم إي ثورة قد ختنها أنا . انه قال لكم أنها ثورة الشعب .

حسنا .... على كل حال فان النائب العام لم تعوزه الأدلة أن في تهمته لي أو في وصمته فساق منها كثيرا ، وكذلك لم يعوزه الشهود . فلو شاء لحشد مئات الشهود الذين يتطوعون ليشهدوا إمام عدالتكم بما رأوه من تهاوني وتخاذلي وتأمري وانقلابي . ولكن النائب العام لم يرد إزعاجكم واكتفي بإزعاجي إنا ... قدم إليكم شهادة مرافقي الذين تلقوا أوامري المباشرة في ذلك اليوم شاهدا واحدا أليس من حقي بعد هذا أن أتقدم بالتهنئة إلى النائب العام على مقدرته

وبراعته وحنكته ؟

سيدي الرئيس :

أقسمت (هيام) أمام محكمتكم يمينا على أنها تقول الحق ، ولقد برت بيمينها وما كذبت . هناك ، على ما اعرف ، محاكم غير محكمتكم الموقرة

يقسم الشاهد أمامها على أن يقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، فلو أن هيام كانت أدت قسما كذلك القسم قبل أن تقدم شهادتها في أمس إذن لاستطعت القول أنها حلفت يمينا كاذبا وإنها ما برت بقسمها. ذلك أن سلمى لم تقل الحق كله أمس . روت حقا ما فعلته أنا حين خالفت الأوامر الصريحة التي زودت بها فلم أوجه نار رشاشات وحداتى إلى المظاهرة القادمة من ناحية ميدان التحرير حاملة على الثورة وبعض لافتات

تحمل بعض الشعارات بل وجهتها إلى الجموع التي كانت تحمل علم الثورة وتحمل معها حبالا للخنق وأعمدة للشنق وسواطير تفلق الهامات والتي قدمت من ناحية مسجد مصطفي محمود . روت هيام هذا وكان هذا حقا ، ولكنها لم تروي ماذا عملته أنا في الليلة السابقة

لليلة العصيان . روت هيام حقا انقلابي المفاجئ على الاتجاه الذي كنت أسير فيه في اندفاع نحو غاية عهدنا الجديد ولكنها لم تروي حقا لم كان هذا الانقلاب وماذا كان دورها هي، في هذا الانقلاب وثم أن هيام أعطت النائب العام العسكري مستندا ليس اقوي منه حينما قالت إني خائن للثورة،

وكان قولها ذلك حقا ، إلا أنها لم تقل فيه كل الحق وإنها لم تبين للنائب العام ولا لمحكمتكم ما هي الثورة التي اعنيها أنا،

لا احد يستطيع أن يميز بين الثورة التي خنتها وتلك التي لا أزال لها مخلصا لها وحقائقي الصغيرة التي وقفت لأرويها لكم تقوم على ما لم تقله هيام

في شهادتها أمامكم يا سيدي الرئيس .. أنها تقوم على ما علمته إنا في الليلة السابقة ليوم العصيان وعلى التمييز بين ثورتين إذا كنت اعترف

باني خنت إحداهما فأنني أبى كل الإباء إن أوصم بأني خنت الثانية أو تهاونت في أمرها . الثورة الحقيقية إنا لم أخنها ولن أخونها ، وحسبي إن راسي الذي يطلبه النائب العام العسكري منكم سيكون فداء لها ...

هيام ... وانأ لا اسميها باسم أسرتها ولا اسبق اسمها بلقب

الآنسة . هيام هي كما وصفها النائب العام خطيبتي . بل هي أكثر من خطيبة يا سيدي الرئيس .. هي حبيبتي ! أن ساحة محكمتكم الموقرة لم تعتاد على أن تسمع اعترافات الحب .. ولكن هيام حبيبتي ونحن

عندما قمنا بالثورة نسمي الأشياء بأسمائها ، أليس ذلك صحيحا ؟ قبل الثورة كانت تعمر قلبينا ، هيام وانأ ، مشاعر واحدة عن

أعداء الوطن ومستثمري الشعب وتدور في رأسينا أفكار متماثلة عن الطريق الصحيحة التي يجب أن يسلكها الشعب للخلاص من أولئك الأعداء والمستثمرين ولبلوغه حريته. كانت هي في مدرستها تلقن تلاميذها حب الوطن وانأ في وحدتي أهيئ جنودي لحماية الوطن ،

وفي كل كلمة منها وكل إيعاز مني لمحة من الثورة التي لاشك في قدومها ، ثورة الشعب في سبيل الوطن ، فلما شبت تلك الثورة وحد انتصارها بين قلبينا ، أنا وهيام كثائرين بأكثر مما وحد عهد الخطبة بين مصيرنا

كرجل والفتاة التي ستكون امرأته ، بالثورة أصبحنا حبيبين بعد أن كنا لسنا غير شابين تعاهدا على الزواج ، ولكن كان مقدرا لنا أن نفترق من حيث التقينا ، شب حبنا مع الثورة ونما بنموها فأصبحنا ، أنا وهيام، نلتقي ونتناقش في صراحة وكندين في ميدان الثورة وفي ميدان الحب معا ، لنكتشف إن بيننا تباينا في مفهوم كل منا لمعنى

الثورة ... ومعنى الحب كذلك . تباين خفيف اخذ بالتوضيح شيئا وراء شيء حتى انتهى بنا ، أنا وهيام ، إلى هذه النهاية ... إلى أن نمثل أمامكم : إنا في قفص الاتهام وهي في موقف الشهود . ولكن ما هو هذا التباين؟

كنت إنا أرى إن الثورة المجيدة التي قام بها الشعب هي ثورة للوطن ، أما سلمى فكانت ترى أن الثورة من أجل الشعب

وأي فرق بين الوطن والشعب ؟ كنت ، وكانت .... كنا نحسبه فرقا هينا ولكن انظروا إلى أين انتهى ذلك الفرق الهين ..

سيدي الرئيس ، إني رجل عسكري قد تعودت أن استخدم ما بين يدي من مادة في سبيل غاياتي المعنوية : استخدم الحديد والنار والقذائف

والأرض الجرداء والقرى المعمورة وحتى جنودي ، وهم أخوتي ، في سبيل الوصول إلى الظفر والمجد والمثل الأعلى . ليست نشأتي العسكرية وحدها هي التي تدفعني إلى تفضيل المعنى على المادة والروح على الجسد، بل إني افعل ذلك لأني من أمة أمنت دوما بان الروح فيها أولى من الجسد وبان معاني مجردة مثل الجود أو الشجاعة أو الذكر الحسن هي أسمى من المال أو طول البقاء أو من الحياة نفسها . فإذا

انسقت إنا العسكري المنتسب إلى هذه الأمة إلى التفريق بين الوطن وبين الشعب ثم سئلت عمن اختار بينهما فمن الطبيعي أن اختار الوطن فأفضله .

ذلك أن الوطن هو القيمة المعنوية للكمية المادية

التي اسمها الشعب . منذ الصغر ونحن نهتف : نموت ويحيا الوطن .

من نحن ؟ نحن الشعب !.. في صبانا وفي وشبابنا تعلمنا

وعملنا على أن نضحي بغايات الأفراد وحياتهم في سبيل سلامة الوطن وحريته،

فلو أن إنسانا عرض علينا أن يبيعنا رفاه الأفراد، وهم

الشعب ، وأمنهم وسلامتهم بثمن يقبضه من مثلنا العليا ومن قيمنا الروحية لصفعناه على وجهه ورددناه خاسئا مدحورا . لماذا قامت ثورتنا الكبرى يا سيدي الرئيس ؛ اننا ثرنا على اناس كانوا يمنوننا بالرفاهة وبالتقدم المادي في مستوى حياة الشعب ، لأننا رأيناهم يسعون إلى ذلك على حساب عزة الوطن وكرامته ، لهذا ثرنا وفي أعماق أعماقنا

يعيش شعارنا القديم : نموت ويحيا الوطن ، في أعماق أعماق هيام كان يعيش ذلك الشعار مثلما كان يعيش في أعماق اعماقي ... ولكن

رياح نكباء هبت على شعلة ثورتنا من جهات الأرض الأربع فانحرفت نور الشعلة عن الوطن وسلطته على الشعب . في البدء قالوا : ما الوطن

وما الشعب و إنهما سيان ! ولكن شعاراتهم أخذت تتضح شيئا بعد شيء وأخذت اتجاهها المنحرف. كنا ننادي بإعلاء الوطن فأصبحوا ينادونا برفات الشعب .

كنا نهتف النصر للوطن فأصبحوا يهتفون يسقط حكم العسكر وبالحرية والاستقواء بالخارج وهم يعنون الليل والعبودية والتبعية . ما أكثر من انساقوا وراء هذه الشعارات المستحدثة وهم لا يدركون مغزى مايفعلون، من هؤلاء هيام التي بدأت انحرافها بأن كانت تناقشني في أن الثورة للشعب وليس للوطن

وان مدلول اللغتين واحد ثم انتهت إلى إن تتهمني باني خنت الثورة لان الثورة هي ثورة الشعب للشعب وانا خائن للشعب ! ولكن قولها

هذا لم يكن إلا أمس يا سيدي الرئيس وفي محكمتكم هذه . أما قبل أمس ، قبل يوم العصيان اقصد ، فان هيام كانت تناديني ببطلها الحبيب وانا أضمها بين يدي وأعصر قدها بزراعي والتهم شفتيها بشفتي .

اسمحوا لي يا سيدي الرئيس .... لا أريد مما أقوله ألان إن أسيئ

إلى هيام ، هيام حبيبتي أول أمس وخطيبتي أول أول أمس . وانا أطمئنكم على أن ما أقوله في حق هيام سيسرها ولو كان سوءا ، فإنها ستتخذه دليلا على شدة اندفاعها في السبيل الذي دفعها فيه مدبرو وجدانها السياسي . للثورة في النفوس اثر مثل اثر الخمرة في الرؤوس

وقد فعل هذا الأثر في نفس هيام فانتشت به وسكرت منه وبدل بسلوكها سلوكا جديدا في الحياة وحيالي إنا خطيبها ، أخذت العلاقة بيننا تتسم بسمات جديدة لم تكن لها حين كانت هيام تقابلني على استحياء وتحدثني وتحمر وجنتاها الخمريتان خجلا إذا ما مست أحاديثنا مستقبلنا الذي سنكون فيه زوجين لكل منا على الأخر حق القرين على القرين . كل ذلك حدث بعد الثورة . لحياة كل إنسان مفاسد ولكن مفاهيمي المعنوية ظلت في عليائها لم تنحدر إلى مستوى الأرضي ولا تمرغت في الوحل ، أما هيام فان تطورات ما بعد الثورة زلزلت مفاهيمها العاطفية فأخذت هذه المفاهيم اشكالا جديدة أدركتها إنا فتركتني بين الدهشة لسرعة انطلاق هيام في تطورها وبين الغبطة لان تطورها قد أفتق على من مفاتنها مالم أكن اعلم به. انتم يا سيدي الرئيس

ويا سادتي الأعضاء عسكريون تدركون جفاف حياة الضابط في وحدته إذا كان مستنفرا وكانت ملقاة على عاتقه مهمة يتعلق بها الوطن و نظام دولة ،ولكن هيام ، المعلمة حين عرفتها قبل أن تدير الثورة ، ثورة الشعب اعني ، رأسها ، هيام هذه كانت تجد الوسيلة بصفتها عضوا ذا شأن في جماعة الأخوان ذات النفوذ السياسي

الكبير ، إلى أن تزورني كل ليلة في مقر قيادتي وان تقضي الساعات الطوال في مكتبي تناقشني في تطورات الحال الراهنة في قطاع عملى

وعملها ، القطاع المشرف عليه إنا عسكريا والمشرفة عليه هي سياسيا . وفي الليلة التي سبقت نهار العصيان زارت هيام مكتبي مثلما فعلت في كثير من الليالي الفائتة . استبدت بها الحماسة وهي تحدثني في خطة

الصباح وتطلعني ، على غير توقع مني ، على أسرارها حتى برقت عيناها بألق التصميم واستطالت قامتها بفورة الأقدام . إن عينى هيام كما لاحظتم ولا شك

ياسيدي الرئيس عسليتان واسعتان ، بل هما وحشيتان

طويلتا الأهداب . وقامتها كما رأيتم معتدلة صدرها بارزا مغريا ويلتف دونها ساقاها رائعين . فما كان لي عذر ، في فورة الحماس وفي وحدتنا وأغراء ليالينا وأحطم شموخ نهديها والتهم شفتيها المحمومتين بشفتي الجشعتين. ولقد فعلت .. فختمت بقبلة لاهية على اتفاق بيننا أن أنفذ في صباح

الغد تلك الخطة السياسية التي أسندت إلي من اجل تنفيذها وقيادة قطعة ليست هينة من الجيش بعد أن غاب رئيسي فيها عنها واستدعي رئيس رئيسي في مهمة خطيرة في بلدة نائية .

كيف قبلت بتنفيذ تلك الخطة بمثل تلك البساطة ؟

جواب ذلك إن ذهني كان

مشتتنا في تلك الساعة من الليل لأن بصري كان معلقا بالفرجة بين نهدي هيام التي كان باديا من زيق قميصها الرياضي وهي تحدثني حديثها الحماسي ..

جواب ذلك أن جسد هيام وانأ أضمها كان يتقلب افعوانيا بين ذراعي ليلتحم بي، كان كل خلية منه كانت في شوق إلى كل خلية من جسدي

جواب ذلك أن قبل هيام كانت من القوة والحرارة إن ظلت تحرق شفتي إلى الصباح وتركض في عروقي الدم الفائر والشهوة العارمة . الخطة كما صورتها لي هيام كانت هينة واضحة : في صباح الغد سيقوم العصيان على ثورتنا المقدسة، وواجبي الواضح أن اقمع ذلك العصيان ببطش وجبروت لئلا تقوم لأعداء الثورة بعدها قائمة . ويقينا ما كنت في حاجة إلى إيضاح من هيام ولا لتشجيع منها ولا لأغراء حتى أقوم بذلك الواجب . كنت في أعماق نفسي اشعر بالفخر انه أسندت ألي مهمة البطش بهؤلاء العصاة الجناة الخونة المأجورين ، الذين يريدون إطفاء شعلة الثورة والعودة بالوطن إلى عهد الرجعية والفساد . إني سأفتك بهم فأقبض عليهم بالجرم المشهود ، في محاولة ارتكاب جريمتهم الشنعاء ... فقد كنت أعلم بأن عصيانهم سيبدأ بصورة مظاهرة

تبدو سلمية ولكنها مهيأة لتنقلب بعد دقائق من قيامها إلى عملية تقتيل وتذبيح وتدمير، الغاية منها أن يتاح لأعوان معروفين وضع أيديهم على مرافق الدولة العليا والقضاء على ثورتنا المجيدة المقدسة . كل هذا

كنت اعرفه مقدما والهنيء نفسي على معرفتي به وفي نفسي أن ليس من حقائق عن المؤامرة المبينة أكثر مما اعرفه . ولكن هيام ، في تلك الليلة ، أشارت بدافع من واجبها كمسئولة سياسية تريد اطلاع المسئول العسكري المخلص أو بدافع من عاطفتها كحبيبة تريد أن لا تكتم شيئا عن محبها الولهان ، أشارت أن تفتح عيني على أمور جديدة ما كان لي بها علم مسبق ، أعلمتني هيام إن العصيان الذي سيقوم في الغد له حقيقة غير الحقيقة التي أبلغتها من رؤسائي ، وانه وان بدا مهيأ من أعداء الثورة هو مدبر في أصله من أولي الأمر وفق خطة متقنة محكمة التدبر أعلمتني هيام بكل تفاصيلها .

تلك الخطة المحكمة كانت على إن المظاهرة التي ستقوم في الغد هي مظاهرة سلمية حقا ، قد أوعزت بها سرا سلطات الثورة المسئولة وبلغت بها نفرا من المواطنين الشرفاء على أن تكون شعاراتها إلى جانب الولاء للثورة

والتحديات الوقحة التي بدا بعض المتطرفين بتوجيهها إلى العقائد الأصيلة في الأمة

والى المثل العليا التي نادت بها الثورة بقوة يوم إعلانها . هكذا ستقوم المظاهرة السلمية في الغد بإيعاز ولو انه إيعاز سري ، من السلطات . ولكن ثمة إيعازا أخر من هذه السلطات نفسها إلى

آخرين ليقفوا في وجه المظاهرة السلمية هذه بمظاهرة مثلها .. ولكن في سلمية .. فهم سيحملون بعض الشعارات المكتوبة وأسلحة رشاشة

وحبالا للخنق وأعمدة للشنق معدة كلها لأعداء الثورة الذين يمشون في المظاهرة السلمية . وواجبي الهين يبدأ حين تلتقي المظاهرتان ، في إن اترك لحاملي الأسلحة والأعمدة والحبال حرية التصرف فإذا أتموا مهمتهم أتممت أداء واجبي في تطويق رجال بعينهم متهمون بأنهم هم الذين أثاروا العصيان وهيئوا التمرد وتسببوا في المجزرة . ذلك أنه ستكون في الغد مجزرة ولا شك ، يموت فيها أبناء

الشعب لتحيا ثورة الشعب .. فثورة الشعب لا تحيا إذا لم تتم

بدماء أبنائه ! وانأ، إنا الذي يؤمن بالثورة وبالوطن والشعب ، سيكون لي الفخر بان احمي هذه المجزرة المشرفة في الغد وان أتم فصولها باعتقال الرجال الموصومين بالتنكر لثورة الشعب وأن أسلم هؤلاء الرجال إلى حاملي أدوات الشنق والخنق والتقطيع !... يا له من غد مشرق سيكون بالنسبة لي يوما عظيما يرفع راسي ورضي ضميري ويفتح لي بوابة مستقبل رائع ..

وانطلقت في الصباح التالي آلة الخطة المبينة دقيقة في توقيتها

واحكامها ، ورأيت بعيني كيف أقبلت جموع الناس المسالمين يرفعون علم الثورة وهم يرفعون لافتات تستنكر تغير هويتنا وهم يرددون يسقط حكم المرشد ويدعو إلى أن تظل شعلة الثورة متقدة بنور الحرية والعزة للوطن

والكرامة للشعب الذي يعيش على ارض الوطن . كانت الشعارات التي تنادي بها المظاهرة هي نفس الشعارات التي تسكن من نفسي وأعماقي وكان الناس الذين يقولون بها هم أخواني وأبناء عمي وأهل بلدتي، وفي قلوبهم الإخلاص وفي نفوسهم الخير

وعلى ألسنتهم الصدق والصراحة. وكنت أحيط مظاهرتهم بجنودي وهم مطمئنون إلى إن هؤلاء الجنود هم إخوانهم وأبناؤهم والى أن الأسلحة التي يحملونها إنما يحملونها لحمايتهم وحماية الوطن. وكنت اعلم من الخطة ما لا يعلمه المتظاهرون وانظر

مرور الدقائق التي ستبرز بعدها في الميدان الكائن في أخر الشارع الرئيسي جموع أهل الأعمدة والحبال والسواطير لأسبغ حمايتى على المجزرة التي توشك أن تقع ويقع ضحيتها هؤلاء المسالمون المخدوعون . أليس هو واجبي الواضح الهين ؟ حتى تلك الدقائق التي سبقت المجزرة كان طعم قبل هيام لا يزال على شفتي ولهاث أنفاسها لازال يلفح وجهى كأنها لا تزال تململ بين ذراعي في وجد واشتهاء ، وكذلك أفكاري كانت لا تزال مأخوذة بأقوال هيام وبحججها وتفاصيل خططها . فكنت في مركز قيادتي أسجل مرور الدقائق واحدة بعد أخرى وفي كل دقيقة كنت أنفذ جزء الخطة الذي يخصها والذي يوصلها إلى الخاتمة المؤكدة

المبتغاة : تذبيح أبناء الشعب اتهام فريق محكوم عليهم مسبقا بأنهم الذين خانوا الشعب وتآمروا على مستقبله ومصيره ..

وفي الدقيقة المعينة المعروف موقعها بالتأكيد في توقيت الخطة برز أهل الحبال والأعمدة والسواطير من الميدان التي تقع أخر الشارع الرئيسي يحملون علم جماعة الأخوان وفي أعينهم الهياج وفي

حلوقهم صرخات الحنق. فترددت جموع المظاهرة السلمية عن التقدم بخطاها الهادئة ثم لم يلبث مئات أفرادها أن تجمعوا متقاربين كقطيع غنم هاجمته جماعة الذئاب ، وتحولت أعينهم إلى فصائل جنودي المسلحين الذين كانوا يحملون أسلحتهم في انتظار أوامري ولكن جماعة الذئاب كانت تعلم أن أوامري لن تصدر ضدها، فاندفع أفرادها يجرون حبالهم وأعمدتهم ويلوحون بسواطيرهم نحو اللحم الآدمي الذي وقف مكوما أمامهم. حينذاك، كما تنزاح عصابة كثيفة عن عين معصوب، سقط الحجاب الغليظ الذي كان يحجب عن بصري النور والحق . لهاث أنفاس هيام أصبح فحيحا انقلب في النهائية سما زعافا، وتبينت في تلك اللحظة إن تغير أخلاق هيام من النقيض إلى النقيض ما كان إلا مثل دليلة بين ذراعي شمشون لتستذله وتستعبده . تلاشى سحر هيام إمام منظر الذئاب الشرسة التي حددت أنيابها لتمزق القيم السامية التي ربيت على تقديسها واسترخصت في كل يوم بقائي في فدائها. وتبينت في تلك اللحظات إلى أين انتهى الفرق الضئيل الذي بدا بيني وبين هيام، إنا في إيماني الصحيح بالوطن وهي في ما تدعي زيفا بأنه إيمان بالشعب. أنا في إيثاري سبيل

التضحية حتى الفداء لبلوغ الغاية الكريمة وهي في سلوكها طريق الغدر وتبريرها الوسائل الدنيئة حين سقط الحجاب الغليظ عن بصيرتي، أصدرت أمري صريحا ومباشرا إلى الوحدة التي كانت ترابط عند منعطف الميدان . فانطلقت رشاشاتها تحصد جماعة الذئاب وتنثر على الأرض أعمدتها وحبالها وسواطيرها .. نعم، لقد جرى ذلك بأمري إنا. وها إنا ألان أقف أمام محكمتكم و تهمتي إني

خائن للثورة.

أية ثورة هذه التي خنتها؟

أنها ليست الثورة الحقيقية التي افديها بدمي ... بل ربما كانت تلك التي أسموها سفاهتا ثورة الشعب.

سيدي الرئيس، سادتي الأعضاء

طلب محامي منكم الرحمة لي ، والذي اعتقده أنا إني لن أجد في قلوبكم رحمة. لا تحسبوا إني أعيبكم بهذا ولكني اعرف إنكم عسكريون والرحمة في عرف العسكري وفي موضع الواجب ضعف. إنا شخصيا لم ارحم أولئك الذين انقلبوا على الثورة المقدسة فحولوها إلى أداة لإسقاط الدولة واستثمارها ماديا يجرون الشعب بها إلى التبعية، فأطلقت رصاص رشاشاتي في صدورهم وصبغت الأرض من دمهم. وانأ ألان غير نادم على ما فعلت. لذلك فان رحمتكم بي، لو حدثتكم أنفسكم بها، ستكون في غير موقعها. أمس، حين قررت أن أتكلم اليوم بين أيديكم عن حقائقي الصغيرة، أمس سألت نفسي ما الذي اكسبه من رحمتكم ؟.. أنا شاب في عنفوان الشباب، أحب الحياة حبا عارما، ولكن هل خلد حب الحياة أحدا في الحياة؟

أن الذين لن يعدموا رميا بالرصاص أو يشنقوا بطلب من النائب العام العسكري أو الذين لن يعلقوا على أعمدة التلفون أو يقطعوا بالسواطير بأيدي جماهير الغوغاء المثارة سيموتون حتما رغم أنوفهم أو في حوادث السيارات أو القطارات، تخيلت نفسي أمس إنكم برأتموني واني خرجت من هذه القاعة حرا طليقا وأطوق هيام حبيبتي بذراعي ، فقلت لنفسي ما قيمة الحياة التي أحياها بعد الآن؟

ستمر على الأعوام متتابعة تزيد من تعلقي بالدنيا وتنقص من قدرتي على التمتع بها إلى أن انطفئ كما ينطفئ سراج نفد زيته و ستكون هيام ، التي اعترفت أمامكم أنها لا تزال تحبني ، .. ولكن

وما قيمة هيام بعد الآن ؟ أنها ستكون لي جسدا بلا روح .. روحها تضاءلت حتى التلاشي حين تنكرت للقيم السامية التي كنا نؤمن بها معا . أما جسدها فلن يكون إلا كأحد أجساد نساء كثيرات عرفتهن في عنفواني ، لا أحب إن أفارق الحياة وانأ في ذروة القدرة على التمتع بها . كل النفوس الكبيرة لم تجد في العمر الطويل إلا الأسى ، بل أنها وجدت الذل أحيانا أرى نفسي واقفا في أقصي غايات نفسي وأي ذروة مأربي ، متهما بخيانة أنا شديد الفخر بها .

كان يمكن إن أموت في الثورة حين نشبت فأكون فداء لها ، ولكني أموت ألان لأني حاولت نفخ النار في شعلتها وتنقية نور الشعلة من الدخان والرماد . لا أكون صادقا لو قلت إني اكره الحياة ، فان قوى الحياة لا تزال تنفجر في شراييني وتلتهب ثائرة في أعصابي ، ولكن ما نفع الأسى ؟! .. أعود فأقول إن حب الحياة لم يخلد أحدا في الحياة . فاحكموا علي بما شئتم ، فاني برغم الأسى طيب النفس مستريح الضمير .

وبهذه الكلمات أتم المتهم دفاعه عن نفسه تاركا لقضاته أن يعودوا إلى أنفسهم وضمائرهم قبل أن يصدروا عليه حكمهم ....

في محطة المترو

ركبَتْ من أول محطة مترو حلوان وهي كهلال الشك، جلد على عظم، وعلى يديها طفل قد جلل بالبياض، وعصبت عيناه، وغطي رأسه ووجهه بشاشة زرقاء

وركب في المحطة التالية سيدة نصَف، أطيب اشطريها الذي ذهب، ممتلئة البدن، سمينة الضواحي، فحيت الأولى، وتحادثتا

والنساء سريعات التعارف، تراهن في طرفة عين يتحدثن إلى من لم يعرفن قبل في أدق الأمور، وأعمق الأسرار، حتى كأنهن صديقات العمر، ورفيقات الصبي؛ فهن يتحدثن بعد دقيقة في السعادة والشقاء، وأوصاف الأزواج وعيوبهم، والحموات ومصائبهن ومضايقتهن، والدخل والخرج؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا في بعضه إلا بعد عمر طويل، وصداقة متينة، ومشاركة في السراء والضراء

وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن في الصراخ، تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت، وتنميه فلا ينام، وتتبع معه كل الأساليب التي تعلمتها في إسكات الأطفال فلا تنجح، وأخيراً تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها

- الثانية - ما له؟

- الأولى - رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشرّبني المر، وفي الليلة الماضية لم أذق طعم النوم، وأنا طول الليل واقفة على رجلي أذرع الحجرة من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأنينه وأنام فيصرخ ويكرر النغمة عينها ويمثل الدور نفسه إلى الصباح، حتى دار رأسي، ومللت الحياة، وتمنيت الموت، ولم أر للحياة طعما منذ رأيت الأولاد، وهانا ذاهبة إلى طبيب العيون

أمعك أولاد أخر؟

نعم - معي خمسة وهذا سادسهم؛ وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت. ومرة حاولت أن أخلص من جنين فكدت أخلص من نفسي وبقى الجنين. ومرة أصبت بنزيف شديد فعرضت نفسي على طبيب فقال إنه إجهاض، وليس من أمل كبير في بقاء الجنين؛ ثم أمرني أن ألتزم سريري ولا أتحرك، وأنام على ظهري دائماً، وكتب لي دواء يمنع النزيف. فامتنعت من شرب الدواء، وأكثرت الحركة، وعملت كل شيء عكس ما نصح الطبيب رغبة في الإجهاض، ثم مع هذا كله ارتفع الدم وثبت الجنين. وهذا هو الذي على يدي

و (اسم الله عليهم) كلهم ذكور؟

لا والله! أربعة ذكور وبنتان، وكلهم في الهم سواء، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب. ففي آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان؛ وتظهر النتيجة، فهذا نجح، وهذا سقط بلا ملحق، وهذا له ملحق؛ ونمضي الإجازة في عناء! وتبتدئ السنة، فمن نجح في الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله؛ والشهادة في يد، والمصاريف في يد، والمدرسة في رفض! ثم هذا صحيح وهذا مريض، وهذا ذاكرَ وهذا لم يذاكر. ولا تسألي عن وقت ذهابهم إلى المدرسة! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها، وهذا عن طربوشه فلا يجده، ونرى الفرد جورب في حجرة وفرداً آخر في حجرة أخرى، فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم. وعند مجيئهم من المدرسة هذا يغضب على الأكل وهذا يرضى، وهذا ينازع ذاك، ولا ينقذنا من كل هذا إلا نومهم. ثم هذا الشهر شهر أقساط المصاريف، وهذا شهر كسوة الصيف، وهذا شهر كسوة الشتاء، وماهية الزوج لا تكفي هذا وذاك، والعيش كله عناء في عناء. وأنت؟ أليس عندك أولاد؟

كان منظراً غريباً، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية، فلما أخرجت منديلها ومسحت دمعتها قالت: أبى الله أن يرزقني في حياتي ولداً، وطالما دعوته وسألته! وحججت مرة، وكان أكبر همي من حجي أن أقف في أشرف بقعة وأسأل الله أن يهبني ابناً أو بنتاً! وليكن الابن ذكياً أو غبياً، ولتكن البنت جميلة أو دميمة؛ فأنا راضية بأي مولود على كل حال، ولكنه - سبحانه وتعالى - لم يفعل، وفي القرآن الكريم: (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور،

أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما) فقد شاء أن يجعلني من الصنف الأخير - لتمنيت أن يكون لي أولاد، وأتحمل فيهم أضعاف ما ذكرتِ من عناء. ثم أراهنك أني أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم - لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لي عملية، واحتملت في سبيلها كل الآلام؛ وذهبت إلى المشايخ فرقَوا وعزَّموا؛ وذهبت إلى الشيخات (فحضَّرن) وبخرن و (وصفن)؛ وقالوا تخافين؛ فخفت ونزلت القبر؛ وقالوا وقالوا، وفعلت وفعلت، فذهب ذلك كله هباء، ورزقني الله مالاً كثيراً استطعت أن أفعل به كل ما وصفوا حتى السفر إلى أوربا واستشارة أطبائها، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد؟

لم يبق لي من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة؛ وكل شيء حولي يذكرني بالأولاد فيثير أشجاني وأحزاني. لقد رأيت في حديقتي أشجار البرتقال والليمون تحمل أثمارها فقلت يا لله! أتسبل نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها، وتضنّ علي فلا أحمل مرة ثمرة! وعندي قطة تحمل دائماً وتضع ما لا يعد من الأولاد، وكلما حملت ذكرتُ حملي، وكلما ولدت بكيت أولادي الذين لم يوجدوا بعدُ؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات في الشارع كل واحدة منهن تحمل في بطنها ولداً، وترضع ولداً، وتجر ولداً، فيتجمع الحزن في قلبي، وتنفجر منه عيني؛ واسمع (معارفي) وصواحبي، هذه ولدت، ثم هذه ولدت، ثم هذه ولدت، فأقول لم يبق عقيما إلا أنا، ولم يتخصص للشقاء غيري! رزقني الله مالاً ولم يرزقني ولداً، وليته رزقني ولداً ولم يرزقني مالاً؛ ولو كان الولد يشرى بكل ما أملك

لاشتريته وكنت سعيدة؛ بل لو كان يشرى بعينيّ لاشتريته وكنت رابحة في صفقتي. وما الدنيا والمال؟ وما الحياة بغير الولد؟ لقد كنت في أول أمري أطلب الولد خشية أن يتزوج زوجي غيري، فلما أمنت جانبه، واطمأننت من ناحيته، طلبت الولد لأنه طبيعتي ولأنه حياتي بعدي، ولأنه موطن انتساخ روحي، ولأني امرأة قد خلقت للأمومة. لقد أحسست بهذه الأمومة في صغري فعملت العرائس إرهاصاً لأمومتي، ثم تزوجت تهيؤاً لهذه الأمومة، فلما تقدمت في السن ولم أجد الأمومة رأيتني فقدت طبيعتي، ورأيتني في الحياة مقدمة بلا نتيجة، أو قبة بلا شيخ، أو لوزة فارغة، وأنا والعروس من الحلوى، والعروس من القطن سواء، كلنا لا يلد. ليس لي أمل في السلة إلا بالموت. فهو وحده بلسم الهموم، ومقبرة الأحزان! وهنا ختمت حديثها - كما بدأته - بالدموع

قالت الأولى: والله لو ذقتِ مرارة الأولاد ما تمنيتِهم؛ ولو جربتِ سهر الليالي ما اشتقتهما؛ ولكن أحب شيء إلى الإنسان ما منع؛ والقصر من بُعد أجمل منظراً من سكناه؛ والخيال دائما ألذ من الحقيقة. لقد كان مرة أكبر أولادي يبكي وهو رضيع ولا نعلم سبباً لبكائه، ويبكي ويشتد في البكاء حتى بلغ معنا الهم مبلغه، وإذا بزفة عريس تمر من تحت بيتنا، فأضحكني زوجي أبو الطفل إذ قال للعريس: (غُرْ) غداً تخلف (وترى) - لو تمنيت الآن شيئاً لتمنيت أني لم أكن تزوجت، وإن تزوجت فلم أكن (خلفت) - أتبادلني؟ وضحكت؟

قالت الثانية وتأوهَتْ: وكيف يمكن البدل؟ إنما أريد أولاداً مني لا منك، أريد كبدي تمشي على الأرض أربيها، ولا أريد كبك أنميها

وأغذيها ـ وأنت أيضاً لا تعبرين عما في نفسك تعبيراً صادقا، فمن تهون عليه أولاده؟ إنما ينفع البدل إن كان قدر لي الله أن أكون ولوداً وأن تكوني عقيما

قالت الأولى: أتريدين الحق يا أختي؟ الدنيا كلها تعب فلا ولود في راحة، ولا عقيم في راحة، ولا متزوجة سعيدة، ولا عزبة سعيدة

ووصل الترام إلى العتبة فنزلتا، هذه إلى طبيب أبنها وتلك لبعض شؤونها

قال صاحبي: ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار؟ قلت: هذا سر الصنعة

فتاة بدوية

رآها اليوم مرة في صحراء فأحبها وتزوجها، ونقلها من تلك الصحراء المقفرة الهادئة، من وطنها العزيز إلى وطنه القاهرة، إلى ضوضاء المدن وجلبتها.

عاش الزوج سنين طويلة في البلاد النائية، في الأماكن البعيدة عن وطنه، ثم عاد ومعه كنز حبه، تلك الفتاة التي تشبه زهرة ذابلة، والتي نشأت وترعرعت في الصحراء بجانب نخلة عارية وفوق رمال حارة، عاد بها إلى القاهرة تلك البلدة العظيمة التي تجمع أصنافاً من الناس وأنواع من البشر، وتعج بمن فيها من السكان. أراد أن يجد لها في القاهرة العظيمة مكانا تعيش فيه هانئة لا تذبل فتنصل ولا تجف فتسقط.

كان متوسط الحال، فهو لا يستطيع أن يقدم إليها في بلد مثل القاهرة حياة صحراوية، فلابد له إن يجد لها في أقاصي البلدة مكانا هادئا منزويا.

لم يتركا مكانا في القاهرة بنول ولا محلة إلا بحثا فيها عن دار فلم يجدا ما يوافقهما، وبالأحرى لم تجد الزوجة ما بلائمها وما يلائم روحها الصحراوية، وكانت تظن أنها إذا بحثت كثيرا في أنحاء البلدة العظيمة وجدت منزلا في روح الصحراء.

كلما زارا دارا كان ينظر الزوج بطرف عينه إلى زوجته ليرى في عينيها الصافيتين ما ينطبع فيهما من انقباض أو انشراح، إلا إنها كانت بعيدة الغور لا يظهر في عينيها ما يجول في قلبها. وكان زوجها أيضاً يود من صميم فؤاده أن يجد مكاناً ترى فيه فتاة الصحراء ولو شيئاً صغيراً يذكرها بالصحراء وطنها العزيز.

وفي يوم من الأيام نهضا صباحاً ليذهبا إلى دار قيل لهما إنها موافقة لرغائبهما وهي في عابدين فذهبا إليها حتى بلغا الدار المقصودة، كانت الزوجة كعادتها لا تبدي اعتراضاً أبداً، بل كانت تمشي بجانبه كآلة صماء، وقد تعبت من البحث عن الدار التي تريدها في تلك البلدة التي لم تر أولها ولم تعرف آخرها.

كانت الدار صغيرة مشرفة على البحر فيها غرفتان وبهو وحديقة صغيرة، وكانت الفتاة البدوية تنظر إلى كل ذلك بفتور وملل فإذا بشيء يعلق به نظرها، لقد لمعت أمام عينيها شمس الصحراء: هناك في الحديقة الصغيرة شجرة نخل، صغيرة هزيلة، ولكنها كانت كافية لأن تمثل لها وطنها العزيز. لقد أثر منظر تلك الشجرة في الفتاة البدوية تأثيراً عظيماً، وأعطى روحها حرارة شمس لطيفة أجرت الدم الذي جمد في عروقها منذ فارقت صحراءها، وفتحت تلك الشجرة الطريق بين عينيها وبين الصحراء النائية عنها: فرأت أباها وأمها وأخوتها، وعلى قيد غلوه منهم رأت جملها الذي يغمض عينيه السوداويين الكبيرتين أمام الشمس وهو يمد عنقه إلى الأمام.

لقد جاءتها هذه الشجرة بالصحراء، الصحراء العزيزة عليها، وبكل شيء قد تركته هناك، وألقته في أحضانها فكأنها بجانبه تلامسه ويلامسها.

نظرت إلى زوجها بعينين يلمع فيهما بريق السعادة لأول مرة بعد عدة شهور، كانت تلك النظرة تفيد معنى: إنني وجدت مبتغاي، وإني هنا، هنا فقط أستطيع أن أعيش بجانب هذه النخلة الصغيرة.

لقد حلت تلك الدار المشرفة على تاريخ القاهرة من قلب المرأة محلاً رفيعاً، فأحبتها بعد زوجها، بقدر حياتها، بقدر وطنها. نزلا في الدار وعاشا فيها سنة طويلة.

كانت تعيش هنا بعيدة عن الناس لا تخرج لزيارة أحد كائناً من كأن، بعيدة عن الحياة الغريبة، عن الوجوه الغريبة، في تلك البلدة الغريبة.

لقد زارتها جاراتها يوماً، فلما رأينها لا تبتدئ معهن خطاباً ولا ترد عليهن جواباً إلا بنظراتها الفاترة الحزينة التي تطلب بها الرحمة والشفقة، ذهبن في الحديث عنها مذاهب شتى كل واحدة ترى فيها رأيا، فلما علمن أن بينها وبينهن حاجزاً من الاختلاف في اللغة يمنعها من الاتصال بهن تألمن لها أشد الألم، ثم أخذت تلك الرحمة تستحيل إلى سخرية واستهزاء.

إن أهل المدن فطروا على أن يعدوا أهل البداوة و الصحراء دونهم في كل شيء، وهكذا كان شأن نساء تلك المنطقة، كن يستهزئن بالمرأة المسكينة، وكن يضحكن منها ويقهقهن، لأنها لا

تفهم ما يقلنه من الكلمات فيها، وكن يجدن في ذلك لذة عظيمة كما يجد الأولاد القساة لذة في تعذيب الحيوان الذي لا حول له ولا قوة، فشعرت فتاة الصحراء بذكائها الفطري أنهن كن يضحكن منها، فنفرت منهم ولم تعد تقابلهن.

لقد نسى نساء الحي وجود فتاة الصحراء بينهن، عدا امرأة عجوز كانت تتردد على نساء الحي فتقص عليهن أحاديثها وجدالها مع كنتها، وتقلق راحتهن بتلك الأحاديث التي لا تعرف الانتهاء، حتى مللنها وسئمن ثرثرتها، فكانت تتردد على فتاة الصحراء فتجلس أمامها وتبدأ حديثها باسم الله وتبقى مدة طويلة تتكلم وتتكلم، ثم تختم القصة بدموع ترسلها من عينيها وتغادر البيت وهي تقول للمرأة التي لم تفهم منها غير دموعها: (إلى الملتقى يا بنيتي لقد أزعجتك بثرثرتي، شرفينا

كانت العجوز لا تني عن زيارة فتاة الصحراء، وأخيرا شعرت إنها وحدها التي كانت تتكلم طيلة هذه الأيام، فقالت لفتاة الصحراء: ما لك لا تتكلمين يا ابنتي ؟ أبكماء أنت أم ماذا؟

فلما رأت فتاة الصحراء لم تجبها إلا بابتسامة مبهمة ولم تقل إلا برأسها نهضت وغادرت المكان على إلا تعود إليه مرة أخرى.

لم يبق من يطرق باب الدار الصغيرة، ولم يبق من يوقظ شمس الصحراء النائمة هنا من أحلامها، إلا إنها أحياناً كانت تنزل عند إرادة زوجها ورغبته وتذهب معه إلى النزهة، ولكنها كانت تعود إلى

بيتها وهي مريضة قلباً لا جسماً، لقد كانت تشبه طائراً صغيراً فارق عشه ليطير، فوهى جناحاه ووقع على الأرض.

إنها لا تكون سعيدة إلا إذا كانت في منزلها منفردة بنفسها أمام شجرة النخل مستغرقة في رؤياها، وفي ذلك الحين فقط تظهر الشمس لعينيها؛ إنها حين تجلس تلك الجلسة، في تلك الساحة التي يبدو لها منها وجه السماء، والتي تشبه في نظرها قصرا من القصور تنسى ذلك الدور الأخير من أدوار حياتها، وتعود بخيالها في غفلة لذيذة إلى تلك البحار الرملية التي تجري فيها بقوة هائلة س يول أشعة شمس بلادها فتغمرها غمرا، وتملأ أرجاءها ونواحيها.

إنها في ذلك الحين حين تجلس إلى تلك النخلة التي تشبهها في محبة الوطن، وتشاركها الأسف والحزن، وترتسم على شفتيها ابتسامة حزن يائسة، لوقوعها بعيدة عن وطنها وعن شمس وطنها وعن سماء وطنها، تجمع تلك الهضاب والتلال التي أمامها بعضها إلى بعض، حتى يغيب عن نظرها ذلك البحر الذي أمامها، وترى أشعة الشمس تغمر تلك الصحراء، وتبصر ألوف النخيل المنتشرة فيها يسلم بعضها على بعض من بعيد بأغصانها الخضراء العالية الرؤوس فإذا رسمت في خيالها هذه الصورة الجميلة، وأتقنت صنعها كل الإتقان، وأعطتها من حسن تمثيلها حياة حقيقية، خيل إليها إن أباها وأمها وأخوتها وجملها ذا العينين الواسعتين السوداويين أمامها وتحت نظرها، فخفق قلبها لهم، وحاولت أن تهجم عليهم مسلمة معانقة.

وربما ذهبت بعض الأحيان في النهار إلى الحديقة ووضعت حصيرا تحت النخلة التي لا ترد أغصانها عنها أشعة الشمس واضطجعت عليها، ورفعت عينيها إلى السماء، وسافرت بفكرها إلى أقصى حدود الخيال.

كانت ترى قطع السحب تمشي في السماء على غير انتظام، فهي إذن أما ذاهبة نحو قومها، أو آتية من عندهم؛ فالسحب إذن قد رأت قومها أو ستراهم، فكانت تبتسم لهؤلاء السائحات وتسألهن: ألم يجئنها بسلام من قومها وصحرائها؟ أو تسألهن أن يتركن لها في أجنحتهن مكانا صغيرا يسع خبرا عنها لقومها وأهلها.

في أعقاب خريف السنة التي قضتها في تلك الدار رأت الطيور تطير أسرابا أسراباً في السماء، فاهتمت لذلك وسألت زوجها عنها فقال لها: (إنها ذاهبة إلى بعيد! إلى البلاد الحارة). فقالت في نفسها إنها ستمر بوطنها العزيز. فكانت تضطجع تحت نخلتها وتغني بصوت حزين أناشيد قومها وألحانهم الشجية، مضمنة ذلك شوقها الشديد، متوهمة إن تلك الطيور ستقفل راجعة إليها تحمل إليها أجوبة تلك الألحان والأشواق.

جاء الشتاء بخيله ورجله، وأصبحت فتاة الصحراء لا تقدر على الجلوس تحت نخلتها، والتمتع بظلها، وشم رائحتها، فأخذها من اليأس ما زاد في الأم نفسها، وأصبحت تقعد بجانب نافذتها ساعات فراغها من عمل المنزل غارقة في بحر من الألأم والأفكار، فما يدري ما الذي كان يشغل خيالها ويقلق بالها في ذلك الحين، أمنظر النخلة

التي كانت تخشى عليها من البرد القارص، والهواء العاصف؟ أم انتظار الطيور تقبل عليها من ناحية من نواحي السماء المستورة بالغيوم، تنقل إليها أخبار أهلها ووطنها؟

كانت فتاة الصحراء كلما مضى يوم من الشتاء هزلت وضعفت، وأخذ نور عينيها يخبو تدريجا. فلم يخف ذلك على زوجها، فقال لها: (ما بك؟ أراك تخفين عني شيئا يمضك ويؤلم، لقد سئمت الوحدة وتشوقت لرؤية أهلك وصحرائك) كانت تنكر ذلك، ولكنها كانت شوق زائد إلى رؤيتهم، إنها اشتاقت إلى الصحراء، إلى شمسها، إلى جوها الصافي، إلى نخيلها، إلى والديها وأخواتها، إلى جملها، اجل! أشتقات إلى كل هؤلاء، ولكنها كانت كالأطفال تنكر شوقها وتصر على الإنكار، ومع هذا كانت تدير وجهها تحت تمثال صحرائها، إلا وهو نخلتها وتنظر إليها بحزن عميق.

اقبل الربيع:

علمت ذلك من زوجها فابتهجت وفرحت: جاء الربيع، كانت تظن انه إذا جاء الربيع. أتاها بتذكار جميل من أهلها ومن قومها، ولكن هيهات، جاءها الربيع بالمصيبة الكبرى: ستباع الدار، وهما مضطران إلى النزوح عنها إلى غيرها.

الدار يبيعها صاحبها: ستفارق إذن فتاة الصحراء حلمها الجميل، ستفارق النخلة، خطر لها خاطر فجائي وهو أن تأخذ معها شجرتها

إلى الدار التي ستسكنها، ذكرت لزوجها رأيها فوافقها على ذلك، وقررا أن يأخذا معهما النخلة سلوتها الوحيدة.

رحلا إلى دار صغيرة مظلمة في حي فقير مظلم فصنعا للشجيرة محلا أمام النافذة ووضعاها فيه وربطاها إلى حديد النافذة.

لقد قنعت فتاة الصحراء بهذه الدار الصغيرة المظلمة، ما كانت ترى في هذه الدر السماء الصافية، ولا الشمس المشرقة، ولا القمر الزاهي، ولا النجوم الزاهرة، ولا الدور الشاهقة، لكنها كانت ترى نخلتها المحبوبة فيسكن قلبها لرؤيتها، فحياتها منوطة بها. تجلس دائما بقرب النافذة واضعة رأسها على يدها، وتنظر إلى رفيقة وطنها بقلب أضناه الشوق وبرحت به الذكرى. ولكن النخلة كانت تذوى كطفل أخذ غصبا من حضن أمه، وفتاة الصحراء تذبل بذبولها كشجيرة انتزعت من مغرسها، فاستحكم الذبول في الاثنتين، فكان يظن الناظر إليهما أن سراج حياتيهما ينطفئ تدريجا.

نهضت يوما من فراشها وذهبت كعادتها إلى نخلتها، ولكنها تراجعت إلى الوراء دهشة، ماذا ترى؟ رأت نخلتها العزيز رفيقتها ومؤنستها قد انكسرت من وسطها حيث الرباط، وسقط رأسها إلى الأرض، فهدت تلك المصيبة من قوة الفتاة، فجلست بجانبها وذرفت دموعا غزيرة خرجت من أعماق قلبها المحطم لفراق الوطن والأهل.

عاد زوجها مساء فألفاها على تلك الحالة باكية حزينة. فسألها قائلا: (ما بك؟ أعلميني أسباب حزنك وكدرك، ما الذي يبكيك؟)

فاعترفت لأول مرة قائلة: (لنذهب! لنذهب إلى هناك!) وأشارت بيدها إلى بعيد، إلى ديار أهلها وقومها.

عادت الطيور ولم تأتها بخبر من أهلها، ولكن ما الذي يهمها من ذلك ألان، إنها ذاهبة بنفسها إلى الصحراء، إلى الوطن الذي طالما فكرت فيه أضناها بعدها عنه، وذرفت لذلك دموعا غزيرة. . . لقد ذهبا إلى الصحراء ومضى على ذهابهما زمن طويل. . . فليت شعري، أفتاة الصحراء لا تزال تجلس تحت ظل أشجار النخيل، تغني أناشيدها القومية فرحة مسرورة بالوطن العزيز الذي كانت ترى بجانبه جمال القاهرة قبحا، وماءها ملحا، وهواءها رديئا، وجوها وشمسها قاتمة، ونجومها مغمضة نائمة، أم هي نائمة نوما أبديا تحت أطباق الثرى، وحيدة منفردة وظلال أشجار النخيل تبكي عليها؟

محتوى الكتاب